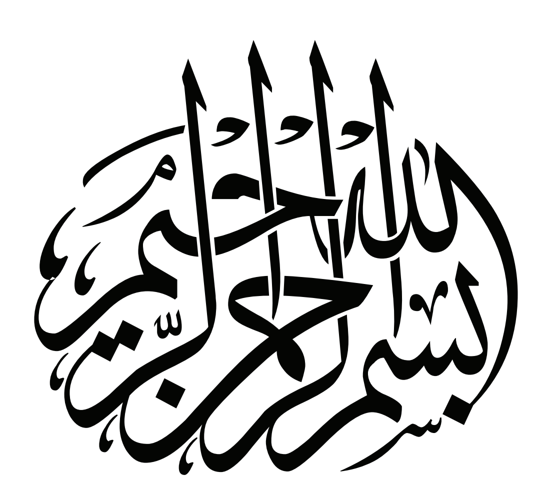
أثر السُّنَّة النبوية
في تكوين العقلية العلمية


محفوظة
جميع الحقوق
الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م

أثر السُّنَّة النبوية
في تكوين العقلية العلمية

د. أحمد قوشتي عبد الرحيم


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلّى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً، وبعد:

فمن الحقائق الثابتة، التي لا يسع منصفاً التشكيك فيها: وجود منهج علمي مكتمل الأركان لدى المسلمين، توصلوا إليه بجهود فذة مبهرة، بريئة من شبهة الاقتباس والتقليد للحضارات الأخرى، وسبقوا به المنهج الغربي الحديث، واستطاعوا من خلاله أن يشيدوا حضارة زاهرة، سادت العالم لقرون طويلة، وقدمت منجزات عظيمة في شتى المجالات، وتركت آثاراً لا تمحوها السنون، لم تقتصر على من سالمها فحسب، بل شملت أعدائها الشانئين[1]، وقد شهد بفضل تلك الحضارة وعظمتها الكثير من كتابات الغربيين المنصفين، فضلاً عن عدد

---

(١) وانظر نموذجاً لأثر الحضارة الإسلامية على الصليبيين الذين عاشوا في بلاد المسلمين فساداً وتدميراً: عبد الله الربيعي: أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي خلال الحروب الصليبية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

كبير من دراسات المسلمين[١].

وقد كتبت أبحاث عديدة حول عناصر هذا المنهج، وأركانه، وعن منجزاته وتطبيقاته، وعن نشأته وتطوره، وعن أبرز من أسهموا في نضجه واكتماله[٢]، لكن ما يزال الأمر

(١) ويمكن مراجعة الكثير من هذه الشهادات الغربية في: كتاب المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، أثر الحضارة العربية في أوروبا، ترجمة كمال بيضون، وفاروق دسوقي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٩٩٣م، وغوستاف لوبون: حضارة العرب، نقله إلى العربية: عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، وانظر أيضاً جوزيف شاخت، وبوزورث: تراث الإسلام، الجزء الأول، ص٢٤، ترجمة: د. محمد السمهوري، وآخرين، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٨، ١٩٨٥م، والعقاد: أثر العرب في الحضارة الأوربية، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٨م، ود. عماد الدين خليل: حول إعادة تشكيل العقل المسلم ص٧٠، وأحمد الملا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية، دار الفكر دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م.

(٢) ومن الكتب المهمة في هذا الصدد: كتاب د. علي سامي النشار: مناهج البحث عند مفكري الإسلام، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٩٤٧م، ود. محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين، مكتبة الخانجي، ١٩٧٧م، ود. جلال محمد موسى: منهج البحث في العلوم عند العرب في مجال العلوم الطبيعية والكونية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م، وقدري حافظ طوقان: علماء العرب وما أعطوه للحضارة، دار الكاتب العربي، بيروت، بدون تاريخ، ود. محمد سليمان داود: نظرية القياس الأصولي منهج تجريبي إسلامي، دار الدعوة بالإسكندرية، ١٩٨٤م، ود. حلمي عبد المنعم صابر: منهجية البحث العلمي وضوابطه في الإسلام، سلسلة دعوة الحق، ١٨٣، ١٤١٨هـ، ود. حسان حلاق، ود. حربي عباس: العلوم عند العرب، أصولها وملامحها الحضارية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٥م.

يحتاج إلى المزيد، ومن المهم «دائماً إشاعة علوم المنهج في الأمة بشكل عام، واستمرار تناولها بالبحث والدرس والنقد والموازنة والترجيح، حتى يشكل البحث في المنهج مناخاً عاماً ينشأ عليه عقل الأمة»[(١)].

ولعل من أهم المجالات التي تحتاج إلى مزيد كشف وإضاءة: البحث عن العوامل التي أدت إلى نشأة هذا المنهج العلمي وتأسيسه، ثم اكتماله ورسوخه، إذ ليس من المتوقع بحال أن يكون منهج كهذا قد انبثق فجأة، أو اكتمل على سبيل الطفرة، وإنما المعقول أنه مر بمراحل متتابعة، وتشكل عبر تراكم جهود لشخصيات عديدة من بلاد وعصور شتى.

ويضاف لذلك أن المنهج العلمي لا يمكن أن ينشأ في أية أمة أو حضارة إلا إذا توافرت الدوافع المحفزة، والظروف المواتية، والمصادر المؤسسة، وقبل هذا كله لا بد من وجود العقلية العلمية، التي تستطيع أن تبدع هذا المنهج، وتستخلص عناصره، ثم تحسن تطبيقه في شتى فروع العلم والمعرفة.

ومقصودنا بالعقلية العلمية هنا: هو تلك العقلية المنهجية المنظمة، التي تعلي من شأن العلم، وترفع من قدره، وتعول على الدليل والبرهان، وتنبذ الخرافات والأساطير، ولا تقبل النتائج بغير مقدمات، ولا تحكم العواطف والظنون في مقام

(١) عمر عبيد حسنة: التقديم لكتاب الفكر المنهجي عند المحدثين للدكتور همام سعيد، ص١٣، سلسلة كتاب الأمة، العدد ١٦، ١٤٠٨هـ.

يطلب فيه اليقين المجرد، ولا تثبت إلا ما قامت عليه الحجة، وتسبر كل ما يعرض عليها من آراء وأقوال[(١)].

ومن أهم ما تنهض به تلك العقلية من وظائف، وما تمتاز به عن غيرها من عقليات: منهجية التفكير العلمي، ونعني بذلك: الجهد الذي يقوم به العقل ـ المسترشد بهداية الشرع ـ من أجل اكتشاف حقيقة مجهولة، أو البرهنة على حقيقة موجودة، مما يتعلق بأمور الدنيا أو الآخرة في خطوات علمية منظمة ومدروسة، ومحاطة بالتوجيه الربانى في قواعد كلية، أو إجراءات تفصيلية، سواء أكان مجال هذا النوع من التفكير في العلوم الشرعية، أم الإنسانيه، أم الطبيعية[(٢)].

وثمة من يؤثر أن يطلق على تلك العقلية العلمية مصطلحات أخرى لا تختلف كثيراً عما ذكرناه، ومن ذلك تسمية البعض لها «بالروح العلمية» قاصداً بها ذلك الحافز الذي يدفع العالم للبحث، ويوجهه إلى النظر السليم، ويدعوه إلى تحري الموضوعية، وتتطلب مثل هذه الروح عدة أمور ضرورية منها: سلامة العالم أخلاقياً ونفسياً، وأن يتسم بدقة الإحساس،

(١) انظر د. يوسف القرضاوي: الرسول والعلم، ص٤٢، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م، ود. أحمد سليم سعدان: مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام، ص٣٥، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٣١، نوفمبر ١٩٨٨م

(٢) انظر: د. خليل الحدري: منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم، ص٤١، ٤٢.

وعمق الملاحظة، وطول الدأب والمثابرة إلى جانب النزاهة، والإخلاص، وسرعة البداهة[(١)].

وهناك مصطلح آخر مقارب وهو «التفكير العلمي» ويراد به: إعمال العقل من أجل اكتشاف حقيقة مجهولة، أو البرهنة على حقيقة موجودة، مما يتعلق بأمور الدنيا أو الآخرة، في خطوات علمية منظمة مدروسة، محاطة بالتوجيه الرباني[(٢)].

وقد حاولت بعض الدراسات أن تحلل الشخصية العلمية، والمقومات المختلفة التي تسهم في تكوينها، سواء أكانت مقومات بيئية، أو جسمية، أو عقلية، أو نفسية، ولا شك أن كثرة هذه المقومات، وتنوعها، وتداخلها يثبت بوضوح أن «بناء الشخصية العلمية جد لا هزل، وعمل إرادي، لا ظاهرة تلقائية، وحقيقة تطلب وفق خطة مرسومة، لا حلم يترك لعوامل الصدفة»[(٣)].

والعقلية العلمية التي نقصدها تتناقض تماماً مع أنواع أخرى من العقليات: كالعقلية العامية أو العقلية المقلدة، أو

---

(١) انظر: د. علي عبد المعطي: المدخل إلى الفلسفة، ص٣٦٨، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٣م.

(٢) انظر: د. خليل الحدري: منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم، ص٩١.

(٣) د.محمد عبده: مقومات الشخصية العلمية، حولية كلية دار العلوم، ص١١٩، ١٢٠، العام الجامعي ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣م، وانظر أيضاً: د. السيد رزق الحجر: المنطق القديم والمنطق الحديث بين المسلمين ومفكري الغرب، ص١٦٥ ـ ٢٢٤، دار الثقافة العربية، ٢٠٠٠م.

العقلية الخرافية[١]، وكل تلك العقليات يجمع بين أصحابها سمات عامة مثل: السطحية، وانعدام الرؤية الكلية، والميل لتقليد الآخرين، والاعتماد على الأوهام والرغبات، والتصديق بكل ما يقال، وغياب ملكة النقد، وعدم بذل أي جهد للنظر والاستدلال الموصلين للمعرفة اليقينية.

ومن المهم أن ننبه إلى أن العقلية العلمية التي يدور بحثنا حولها ليست قاصرة على العلماء التجريبيين دون من سواهم، كما أن التفكير العلمي ليس تفكير العلماء وحدهم بالضرورة، وعلة ذلك أن العالم التجريبي يفكر في مشكلة متخصصة، تكون في أغلب الأحيان منتمية إلى ميدان لا يستطيع غير المتخصص أن يخوض فيه، بل قد لا يعرف في بعض الحالات أنه موجود أصلاً، وهو يستخدم في تفكيره، وفي التعبير عنه لغة متخصصة، يستطيع أن يتداولها مع غيره من العلماء، وهي لغة اصطلاحات ورموز متعارف عليها بينهم، وإن كانت مختلفة كل الاختلاف عن تلك اللغة التي يستخدمها الناس في حديثهم ومعاملاتهم المألوفة، وتفكير العالم يرتكز على حصيلة ضخمة من المعلومات، بل إنه يفترض مقدماً كل ما توصلت إليه البشرية طوال تاريخها الماضي في ذلك الميدان المعين من ميادين العلم[٢].

(١) انظر: د. يوسف القرضاوي: العقل والعلم في القرآن الكريم، ص٢٤٩.

(٢) انظر: د. فؤاد زكريا: التفكير العلمي، ص٥، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٣، مارس ١٩٧٨م.

أما التفكير العلمي الذي نقصده فلا ينصب على مشكلة متخصصة بعينها، أو حتى على مجموعة من المشكلات المحددة التي يعالجها العلماء، ولا يفترض معرفة بلغة علمية أو رموز رياضية خاصة، ولا يقتضي أن يكون ذهن المرء محتشداً بالمعلومات العلمية، أو مدرباً على البحث المؤدي إلى حل مشكلات العالم الطبيعي أو الإنساني.

بل إن ما نقصده هنا: هو ذلك النوع من التفكير المنظم، الذي يمكن أن نستخدمه في شئون حياتنا اليومية، أو في النشاط الذي نبذله حين نمارس أعمالنا المهنية المعتادة، ومع العالم المحيط بنا، وكل ما يشترط في هذا التفكير هو أن يكون منظماً، وأن يبنى على مجموعة من المبادئ المنهجية الواضحة[١].

وانطلاقاً مما تقدم يظهر لنا أن العقلية العلمية يمكن أن يتصف بها الإنسان العادي، حتى لو لم يعرف نظرية علمية واحدة معرفة كاملة، ولو لم يكن قد درس مقرراً علميّاً واحداً طوال حياته[٢]، كما أن التفكير العلمي ليس حكراً على العلوم التطبيقية أو التجريبية وحدها، وإنما هو طريقة في التفكير ذات منهجية منظمة، وخطوات مقننة، هدفها الحقيقة، ويمكن

(١) انظر: د. فؤاد زكريا: التفكير العلمي، ص٥، ود.أحمد سليم سعدان: مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام، ص٢٠.
(٢) انظر: د. فؤاد زكريا: التفكير العلمي، ص٧.

تطبيقها على أي مجال من المجالات[١].

وهكذا يمكننا القول بأن كل طريقة في البحث توصل سالكها إلى الحقائق في المجال الذي يبحث فيه تعتبر طريقة ومنهجاً علميّاً، ولما كانت مجالات البحث مختلفة، فإن من الطبيعي أن تكون مناهجها مختلفة، إذ من الضروري التلاؤم بين المنهج والموضوع، وكل موضوع معرفي له منهج يناسبه، فالبحث في الطبيعة يناسبه المنهج التجريبي، والبحث في استنباط الأحكام وتقعيد القواعد الشرعية يناسبه المنهج الاستدلالي، والبحث في إثبات الأخبار والمرويات وتوثيقها يناسبه المنهج التاريخي (الاستردادي) وعدم مراعاة التناسب بين المنهج والموضوع يؤدي إلى خلل كبير وفساد عريض[٢].

وإذا كانت التجربة خطوة مهمة وضرورية من خطوات المنهج العلمي في العلوم التجريبية، فإنها ليست بهذه الأهمية في علوم أخرى مختلفة في طبيعتها ومصادرها، وكل ذلك يثبت الخطأ الكبير الذي وقع فيه كثيرون حينما جزموا بأن هناك منهجاً علمياً واحداً هو منهج العلوم الطبيعية، وأن ما سواه ليس بمنهج علمي[٣]، بناء على أنه لا مصدر للحقائق

(١) انظر: د. خليل الحدري: منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم، ص٤٢.

(٢) انظر: د. حلمي عبد المنعم صابر: منهجية البحث العلمي وضوابطه في الإسلام، ص٢٠.

(٣) انظر: د. ماجد عرسان: فلسفة التربية الإسلامية، دراسة مقارنة بين =

الموضوعية إلا الطبيعة، ولا منهج يوصل للحقائق إلا مناهجها[(١)].

وقد استطاع المسلمون صياغة قواعد البحث العلمي المنظم في مجالات عدة، منها مجال التوثيق للأخبار والمرويات، ومجال القضايا والأحكام الشرعية فقهاً وأصولاً، ومجال علوم الكون والإنسان وسُنَّة الله في الأنفس والآفاق، وكان لهم فضل الريادة والسبق في تأسيس المناهج العلمية في البحث، وفي تطبيقاتها في المجالات المعرفية المختلفة، مع التناسب بين المنهج والميدان المعرفي المستخدم فيه، ومراعاة حدود العقل وإمكانياته[(٢)].

وثمة دراسات عدة أثبتت بوضوح أن المنهج العلمي التجريبي ـ الذي أذاعه ونشره في كل أنحاء أوروبا كل من روجر بيكون، وفرنسيس بيكون ـ يرجع إلى أصل إسلامي، وقد أكدت حقائق التاريخ سبق علماء الإسلام إلى ممارسة المنهج التجريبى قبل بيكون وجون استيورت مل بعدة قرون، وممن اعترف بهذه الحقيقة الكاتب الإنجليزي بريفولت في كتابة بناء الإنسانية، حيث أشار إلى أن روجر بيكون درس اللغة العربية،

= فلسفة التربية الإسلامية والفلسفات التربوية المعاصرة، ص٢٦٠.

(١) انظر: د. جعفر شيخ إدريس: مناهج التفكير الموصلة للحقائق الشرعية والكونية، ص٢٦.

(٢) انظر: د. حلمي عبد المنعم صابر: منهجية البحث العلمي وضوابطه في الإسلام، ص١٥.

والعلم العربى، والعلوم العربية في مدرسة أكسفورد على خلفاء معلميه العرب في الأندلس، وليس لروجر بيكون ولا لسميه الذى جاء بعده الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبى، فلم يكن روجر بيكون إلا واحداً من نقلة العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة[(١)].

لكن يبقى ثمة فارق جوهري بين منهج البحث العلمي الإسلامي ومنهج البحث الغربي، حيث يتأسس المنهج الإسلامي ويرتكز على الإيمان بالله، والتصديق بعالم الغيب إلى جانب عالم الشهادة، والتسليم بالمشيئة الإلٰهية دون تشكيك في حرية الإنسان وإرادته، ومراعاة التوازن بين المؤثرات المختلفة، وعدم التزام بعد واحد فحسب، حيث يراعي الفطرة، ويتسم بالموضوعية، والبعد عن العصبية والاستعلاء القومي، وكلها ضوابط وسمات تميزه عن منهج البحث الغربي[(٢)]، لا سيما في مجال ما يعرف بالعلوم الإنسانية.

والمتتبع لنصوص القرآن والسُّنَّة يجد عشرات النصوص التي أسهمت في تأسيس تلك العقلية أو الروح العلمية،

(١) انظر: د. صلاح رسلان: العلم في منظوره الإسلامي، ص٦٤، ٦٥.

(٢) انظر: د. أكرم ضياء العمري: منهج النقد عند المحدثين مقارنة بالمنهج النقدي الغربي، ص١١.

وغرست في المجتمع المسلم مجموعة كبيرة من القواعد، والأسس المنهجية التي تعلي من شأن العلم، وترفع من قدره، وتوسع من مفهومه، وتزيل كل عقبة أو مانع دونه، ثم تحوط هذا العلم بأخلاقيات وقيم رفيعة، تحول دون إساءة توظيفه أو الحط من قدره.

وقد أثمر ذلك كله العديد من العلوم، التي انبثقت من مشكاة الكتاب والسُّنَّة ومعينهما الزاخر، ولعل كلّاً من: علم مصطلح الحديث، وعلم أصول الفقه ـ في مراحل نشأته الأولى قبل تسلل الأثر الكلامي أو المنطقي ـ يعتبران من أبرز العلوم التي ظهرت فيها آثار ذلك التوجيه القرآني والنبوي، وتجلت سمات عبقرية العقلية المنهجية الإسلامية في أبهى تطبيقاتها وإبداعاتها المتفردة والخالية من كل شوب للتقليد أو المحاكاة، حيث «أنشأهما العقل المسلم على غير مثال سابق، وهما يمثلان معاً إضافة هامة ومتفردة في التأصيل للفكر المنهجي، والتحصين الثقافي، والتميز الحضاري للمسلمين»[١].

وليست دعوى سبق المسلمين لإنشاء منهج نقد المرويات من قبيل الفخر غير المستند لأدلة وشواهد، فقد أقر بذلك عدد من الكتاب الغربيين[٢]، وكما يقول أسد رستم فإن «أول من

(١) د. خلدون الأحدب: أثر علم أصول الحديث في تشكيل العقل المسلم، ص٢٩، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

(٢) انظر: د. حسن حنفي: حوار الأجيال، ص٥١٩، ود. خالد أبا الخيل: =

نظم نقد الروايات التاريخية ووضع القواعد لذلك: علماء الدين الإسلامي... فانبروا لجمع الأحاديث ودرسها وتدقيقها، فأتحفوا علم التاريخ بقواعد لا تزال في أسسها وجوهرها محترمة في الأوساط العلمية حتى يومنا هذا»[١]، ثم يضيف الرجل بأن المثودولوجية الغربية ليست غريبة عن علم مصطلح الحديث، بل تمت إليه بصلة قوية، فالتاريخ دراية أولاً ثم رواية، كما أن الحديث دراية ورواية: «ولو أن مؤرخي أوروبا في العصور الحديثة اطلعوا على مصنفات الأئمة المحدثين، لما تأخروا في تأسيس علم المثودولوجية حتى أواخر القرن الماضي»[٢].

وقد أثر منهج المحدثين وقواعدهم على جل العلوم والفنون النقلية، وحاول علماء اللغة والأدب والتاريخ تقليدهم، ونقل روايات علومهم بالأسانيد، ويظهر ذلك جليّاً في كتابات المتقدمين، مما يعني أن هذا المنهج الحديثي بمثابة أساس لكل العلوم النقلية، بحيث يصدق عليه أنه منطق المنقول، وميزان تصحيح الأخبار[٣].

= الاتجاه العقلي وعلوم الحديث جدلية المنهج والتأسيس، ص٥.

(١) د. أسد رستم: مصطلح التاريخ، ص٥، المكتبة العصرية بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

(٢) المصدر السابق، ص١٢.

(٣) انظر: عمر عبيد حسنة: التقديم لكتاب الفكر المنهجي عند المحدثين للدكتور همام سعيد، ص١٠.

ومن مميزات هذا المنهج أنه منهج تاريخي نقدي، لا يسلم بالنص دون محاكمة ونقد، ولا يكتفي بصدوره عن عالم أو ذي مكانة كبيرة حتى يقبل، بل لا بد من ثبوت نسبة النص إلى قائله، والنظر فيه نظرة ثاقبة فاحصة، وقد غاب هذا المنهج التاريخي النقدي بالكلية عن التوراة والإنجيل[١]، وعن سائر التواريخ القديمة[٢]، ثم جاء الإسلام ليمنح العالم أجمع هذا المنهج الدقيق والمحكم والقائم على الاستقصاء والتفكير السليم[٣].

وعلى الرغم من كثرة الكتابات حول العلم[٤]، أو النظر

(١) وفي المقارنة بين منهجية جمع السُّنَّة، ومنهجية جمع الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى، انظر: د. محمد مصطفى الأعظمي: منهج النقد عند المحدثين نشأته وتاريخه، ص١٤٤، ود. عزية علي طه: منهجية جمع السُّنَّة وجمع الأناجيل دراسة مقارنة.

(٢) انظر: د. أكرم ضياء العمري: منهج النقد عند المحدثين مقارناً بالمنهج النقدي الغربي، ص٢٥.

(٣) انظر: د. همام سعيد: الفكر المنهجي عند المحدثين ص٢٥،٢٤، ود. محمد مصطفى الأعظمي: منهج النقد عند المحدثين نشأته وتاريخه، ص٩١.

(٤) انظر على سبيل المثال: د. يوسف القرضاوي: العقل والعلم في القرآن الكريم، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، ود. خليل الحدري: منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م. ود. أحمد درة: قصة العلم في القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م، ود. صلاح الدين بسيوني رسلان: العلم في منظوره الإسلامي، دار الثقافة والنشر والتوزيع، ١٩٨٩م.

العقلي[١]، أو نظرية المعرفة في القرآن، أو في الإسلام عموماً[٢]، فإن جانب السُّنَّة ـ في حدود اطلاعي المتواضع ـ لم يحظ بقدر مماثل من الاهتمام[٣]، مع أن نصوص السُّنَّة تفسر

(١) انظر: عباس محمود العقاد: التفكير فريضة إسلامية، ود. صلاح الدين المنجد: الإسلام والعقل على ضوء القرآن والحديث، دار الكتاب الحديث، بيروت، الطبعة الثانية، وفاطمة إسماعيل: النظر العقلي في القرآن الكريم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، ود. محمد على الجوزو: مفهوم العقل والقلب في القرآن والسُّنَّة، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م، وعبد الكريم عبيدان: الدلالة العقلية في القرآن الكريم ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية، دار النفائس، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، وهدى عبد الرحيم قاسم: التربية العقلية في القرآن الكريم، ماجستير بكلية التربية جامعة أم القرى، ١٤٠٦هـ.

(٢) انظر: يوسف كمال: منهج المعرفة من القرآن الكريم، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م، ود. راجح الكردي: نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ومكتبة المؤيد، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م، ود. عبد الرحمٰن بن زيد الزنيدي: مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي دراسة نقدية في ضوء الإسلام، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ومكتبة المؤيد، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م، ود. عبد الله القرني: المعرفة في الإسلام: مصادرها ومجالاتها، مركز التأصيل، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

(٣) ولا ينفي ذلك بالطبع وجود عدد من الدراسات الثقافية العامة مثل بحث أبي الحسن الندوي: دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته، المجمع الإسلامي العلمي، الهند، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م، وكذا بعض الدراسات التي لم تتناول أحاديث السُّنَّة نفسها، وإنما عنيت ببيان منهجية علم الحديث بصفة أساسية، أو أثرها على العقل المسلم، ومن نماذج ذلك: بحث د. خلدون الأحدب: أثر علم أصول الحديث في تشكيل العقل المسلم، وبحث د. همام سعيد: الفكر المنهجي عند المحدثين، سلسلة كتاب الأمة، ١٤٠٨هـ.

القرآن وتبينه، وهي التطبيق العملي للقرآن، ومن المؤكد أن توجيهات القرآن في هذا الباب قد وجدت طريقها إلى السُّنَّة، وتمثلت في صورة نصوص قولية من جهة، ومواقف عملية من جهة أخرى.

ونظراً لهذا التباين الواضح في درجة الاهتمام، فسوف ينصب تركيزنا في هذا البحث على أحاديث السُّنَّة النبوية في المقام الأول، لنرى كيف أولت العلم أعظم اهتمام ممكن، ووسعت من مفهومه، ثم كيف غرست تلك العقلية العلمية المنهجية في نفوس المسلمين بالعديد من الوسائل، والأساليب المتنوعة.

وفي اعتقادي أن العقلية العلمية الجديرة بهذا الوصف لا يمكن أن تغرس في شخص، أو في مجتمع، أو في حضارة من الحضارات، إلا إذا توافرت عناصر أربعة أساسية، لا يصح أن يغيب واحد منها، وهي:

أولاً: الإعلاء الشديد من قيمة العلم، والحث على تعلمه، وتحصيله بكل طريق ممكن، ثم بثه ونشره وتعليمه لكل راغب.

ثانياً: تحديد مفهوم أو تصور شامل للعلم، بحيث يجعله منطبقاً على كل معرفة صحيحة ونافعة.

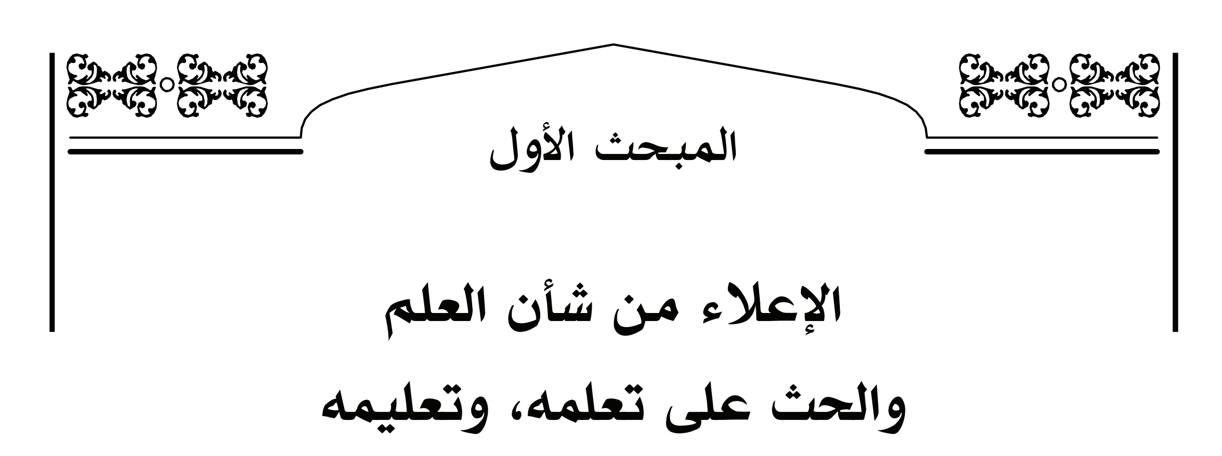
ثالثاً: ترسيخ مجموعة من القواعد المنهجية المنظمة، التي تضبط طرق تحصيل العلم والمعرفة، وتزيل كل عقبة في طريقها.

رابعاً: صيانة العلم بمجموعة من الأخلاقيات والآداب، التي تحافظ على رونقه، وتحول دون إساءة توظيفه أو تطبيقه.

وسوف نحاول فيما يلي أن نتتبع بقدر ما نستطيع نماذج من أحاديث السُّنَّة القولية والعملية، لنرى كيف عنيت بالعناصر السابقة على أتم الوجوه، وأفضلها، مع التنبيه إلى أن قصر بحثنا على السُّنَّة النبوية لا يعني مطلقاً عدم الاستدلال بآيات القرآن، الذي هو أصل الأصول، وكلي الشريعة وعمدتها، ولا سيما في المواضع التي لا نستطيع أن نقف فيها على نصوص من السُّنَّة الصحيحة، كما يجدر بنا التنبيه إلى أننا في مواضع كثيرة من البحث قد أوردنا أحاديث من السُّنَّة دون أن نعلق عليها ببيان وجه الدلالة أو استخراج الفوائد المبثوثة في النص، وذلك لوضوح النص من جهة، وخشية تضخم البحث وطوله من جهة أخرى.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله أولاً وآخراً.





المبحث الأول

الإعلاء من شأن العلم
والحث على تعلمه، وتعليمه

وقد ورد في فضل العلم، والأمر بتحصيله عشرات النصوص من القرآن والسُّنَّة، وأقوال سلف الأمة الأفاضل، من الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم[(١)]، ومع كثرة هذه النصوص وتنوعها كمّاً وكيفا، يمكننا القول ـ دون أن نتهم بالمبالغة أو التعصب ـ بأنه لا يكاد يوجد دين، أو كتاب سماوي جاء فيه من الحث على العلم، والأمر بطلبه وتحصيله، وتعظيم أهله والمشتغلين به، والإعلاء من مكانتهم ومنزلتهم ـ مثلما ورد في دين الإسلام من خلال مصدريه الأساسيين، وهما القرآن والسُّنَّة[(٢)].

(١) انظر: ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ١/ ٣٥، وابن القيم: مفتاح دار السعادة ١/ ٤٨.

(٢) انظر العقاد: الفلسفة القرآنية، ضمن موسوعة عباس محمود الإسلامية، الجزء الرابع، ص٢٦، دار الكتاب العربي، لبنان، ١٩٧١م، والتفكير فريضة إسلامية، ص٨٦ ـ ٨٨، دار القلم، الطبعة الأولى، ود. محمد بلتاجي: بحوث مختارة في السُّنَّة ص٢٢٨، مكتبة الشباب، ١٩٩٦م، ود. يوسف القرضاوي: العقل والعلم في القرآن الكريم، ص٧٥، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م، ود. عبد الحميد مدكور: =

ولعل أدنى مقارنة بين الإسلام وبين غيره تؤكد هذه الحقيقة، وتثبت الفارق الشاسع بين دين يحرم القول بغير علم، ويأمر بالتثبت، وطلب الدليل والبرهان، وبين دين ـ محرف ـ أو ثقافة ينصح قادتها الأتباع بقولهم: أطفئ مصباح عقلك، واعتقد وأنت أعمى[١].

ويكفي للتدليل على ذلك أن نشير إلى ورود لفظ العلم ومشتقاته في كتاب الله تعالى فيما يقارب (٨٧٠) آية[٢]، أما في السُّنَّة ـ فرغم صعوبة الحصر الدقيق ـ إلا أن العدد لا يقل بحال عن ألفين أو أكثر، وربما وصل إلى بضعة آلاف، إذا عددنا سائر المشتقات المتفرعة من الجذر علم[٣].

= في الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر، ص٢٧، دار الهاني للطباعة والنشر، ٢٠٠٣م، ود. صلاح رسلان: العلم في منظوره الإسلامي، ص٧، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٨٩م.

(١) وللمقارنة بين موقف الإسلام وموقف الكتاب المقدس عند النصارى انظر ما ذكرته المستشرقة المعروفة زيجريد هونكه في كتابها: شمس العرب تسطع على العالم، ص٣٦٩، ٣٧٠، وانظر أيضاً: د. محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين، ص١٤، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٧٦م، ود. صلاح رسلان: العلم في منظوره الإسلامي، ص٥، ٦.

(٢) انظر: محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص٤٦٩ ـ ٤٨٠، وأنور الجندي: العلم في الإسلام، ص١، سلسلة دراسات إسلامية معاصرة منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ود. محمد الصادق عفيفي: لمحات في الثقافة الإسلامية ص١٢، ١٣، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩١م.

(٣) وقد بحثت عن الجذر «علم» في بعض برامج الكمبيوتر، وهو برنامج =

وأول لفظة نزلت من القرآن الكريم هي ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ بكل ما يحمله ذلك الفعل من دلالة على أهمية القراءة، والتي تعد ـ مع الكتابة ـ السبيل الأساسي لتحصيل العلم وحفظه، وتراكمه ونموه، وانتقاله من جيل لآخر.

كذلك امتن الله على العباد في نفس السورة بنعمة التعليم بالقلم، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤﴾ [العلق: ٤] ولا شك أن القلم من أجل نعم الله تعالى على عباده، إذ لولاه لم يقم دين، ولم يصلح عيش[1]، وبالقلم «تخلد العلوم وتثبت الحقوق، وتعلم الوصايا، وتحفظ الشهادات، ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس، وبه تقيد أخبار الماضين للباقين اللاحقين، ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض، ودرست السنن، وتخبطت الأحكام»[2].

ونظراً لكثرة النصوص في هذا الباب بحيث يحتاج جمعها، وتصنيفها وتأمل دلالتها إلى بحث مستقل، ومطول[3]،

= الكتب التسعة لشركة صخر، فكانت مرات تكرار وروده (٥٤٩٥) مرة، مع ملاحظة أن هذا البرنامج مقتصر على الكتب التسعة فقط دون غيرها من مصادر الحديث الأخرى، وهي كثيرة ومتعددة، كما أن هذا العدد يدخل فيه أقوال الصحابة والتابعين وغيرهم، ويجمع بين الأحاديث القولية والفعلية.

(١) انظر: تفسير الطبري ٢٤/٥١٩، وتفسير القرطبي ٢٠/١١١.

(٢) ابن القيم: مفتاح دار السعادة ١/٢٧٨، ٢٧٩.

(٣) وهناك العديد من الكتابات القديمة والحديثة التي عرضت للكلام عن فضل العلم بالتفصيل، ومنها على سبيل المثال: كتاب العلم في كل من =

فسوف نكتفي هنا بالإشارة فقط إلى ما يخدم مقصدنا الأساسي من هذا البحث، وهو بيان العناية الشديدة، والإعلاء الذي لا نظير له من شأن العلم وأهله، سواء في القرآن أو السُّنَّة.

١ ـ ولعل أول ما نشير إليه في هذا الصدد هو التنصيص الصريح على أن طلب العلم فريضة على كل مسلم، وكذا كل مسلمة ـ إذ لا فرق بينهما في عموم التكليف الشرعي ـ بحيث يأثمان إن قصرا، أو فرطا في تحصيله، وقد أمر الله سبحانه بطلب علم التوحيد ومعرفته جل وعلا، فقال: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

أما السُّنَّة النبوية فقد ورد فيها هذا المعنى صراحة في

= صحيحي البخاري ومسلم والسنن الأربعة، ومقدمة سنن الدارمي، وكتاب العلم لأبي خيثمة زهير بن حرب تحقيق: الألباني، وأخلاق العلماء للآجري، والفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي، وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، وتذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة، وأدب الدنيا والدين للماوردي ومقدمة المجموع للنووي، وأبجد العلوم لصديق حسن خان، ومن المصنفات الحديثة انظر: د. بكر أبو زيد: حلية طالب العلم، وعبد العزيز بن محمد السدحان: معالم في طريق طلب العلم وغير ذلك الكثير، وقد عولنا على وجه الخصوص في بيان هذه الأوجه على ما كتبه كل من: ابن القيم: مفتاح دار السعادة ١/ ٤٨ وما بعدها، وصديق حسن خان: أبجد العلوم ١/ ٩١، ومحمد بن صالح العثيمين: كتاب العلم، ص١٥ ـ ٢٢، إعداد: فهد بن ناصر السليمان، دار الثريا للنشر، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م، ود. عبد الحميد مدكور: في الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر ص٢٧ ـ ٦٠، دار الهاني للطباعة والنشر ٢٠٠٣م، ود. سيد حسين العفاني: صلاح الأمة في علو الهمة ١/ ١٤٤ ـ ١٥٨.

حديث يدل على فرضية طلب العلم على كل مسلم، حيث قال النبي ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»(١)، والعلم الذي يعد تعلمه فرض عين هو: العلم الذي يتعلم به المكلف ما لا يتأدى الواجب الذي تعين عليه فعله إلا به، ككيفية الوضوء، والصلاة، ونحوهما(٢).

وهذا الحديث وإن اختلف في تصحيحه وتضعيفه، إلا أن معناه صحيح بلا ريب لكل من تأمل حقيقة الإيمان والإسلام وشرائعه لأن «الإيمان فرض على كل واحد، وهو ماهية مركبة من علم وعمل، فلا يتصور وجود الإيمان إلا بالعلم والعمل، ثم شرائع الاسلام واجبة على كل مسلم، ولا يُمكن أداؤها إلا بعد معرفتها والعلم بها، والله تعالى أخرج عباده من بطون أمهاتهم لا يعلمونَ شيئاً، فطلب العلم فريضة على كل مسلم، وهل تمكن عبادة الله التي هي حقه على العباد كلهم الا بالعلم، وهل ينال العلم الا بطلبه»(٣).

٢ ـ يعد طلب العلم في الإسلام عبادة عظيمة، وقربة لا نظير لها، بل إن طلب العلم والازدياد منه أفضل من إكثار المكلف من نوافل العبادات المختلفة، كالصيام والصلاة؛ لأن

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٤)، وأبو يعلى في مسنده (٤٠٣٥)، والطبراني في الأوسط (٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩١٣، ٣٩١٤).
(٢) انظر: النووي: المجموع ١/ ٢٤، وانظر أيضاً رأي الغزالي في: إحياء علوم الدين ١/ ١٤.
(٣) ابن القيم: مفتاح دار السعادة ١/ ١٥٦.

الأول من باب النفع المتعدي لعموم المسلمين، والثاني من باب النفع القاصر على صاحبه.

وقد ورد في السُّنَّة صراحة ما يشهد لذلك، مثل قوله ﷺ: «**فضل العلم خير من فضل العبادة، وخير دينكم الورع**»(١)، وفي هذا الحديث دليل على أن فضل الْعلم ونفله خير من فضل العباة ونفلها، وإنما كان الأمر بهذه المثابة لأن «الْعلم يعم نَفعه صاحبه وَالنَّاس معه، وَالْعبادة يخْتَص نفعها بصاحبها، ولأن الْعلم تبقى فَائدته وَعلمه بعد مَوته، والعبادة تنقطع عنه»(٢).

كذلك فضَّل النبي ﷺ العالم على العابد، فقال: «**فضل العالم على العابد، كفضلي على أدناكم**»(٣)، وفي رواية أخرى، قال ﷺ: «**وفضل العالم على العابد، كفضل القمر على سائر الكواكب**»(٤).

وإنما شبه العالم بالقمر، والعابد بالكواكب ـ كما ذكر بعض شراح الحديث ـ لأن كمال العبادة ونورها لا يتعدى من العابد، ونور العالم يتعدى إلى غيره(٥)، كما يدل تشبيه العالم

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٣١٤)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب ١/ ٥٠، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٢١٤).

(٢) ابن القيم: مفتاح دار السعادة ١/ ١٢٠.

(٣) رواه الترمذي (٢٦٨٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٢١٣).

(٤) رواه أبو داود (٣٦٤١) وسكت عنه، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد في المسند (٢١٧٦٣)، وحسنه الألباني في المشكاة (٢١٢).

(٥) المباركفوري: تحفة الأحوذي ٣/ ٣٨٠.

بالقمر ليلة البدر، وهو نهاية كماله، وتمام نوره، وتشبيه العابد بالكواكب، على أن بين العالم والعابد من التفاوت في الفضل ما بين القمر ليلة البدر وبين الكواكب «والسر في ذلك ـ والله أعلم ـ أن الكوكب ضوءه لا يعدو نفسه، وأما القمر ليلة البدر، فإن نوره يشرق على أهل الأرض جميعاً، فيعمهم نوره فيستضيئون بنوره، ويهتدون به في مسيرهم»[١].

وقد نقل عن عدد من الصحابة، والأئمة المتقدمين أقوال كثيرة تدل على فضل العلم على نوافل العبادات، ومن ذلك ما روي عن كل من أبي هريرة، وابن عباس، وبعدهما الإمام أحمد أنهم قالوا: تذاكر العلم بعض ليلة أحب إليَّ من إحيائها، وروي عن الشافعي أنه قال: طلب العلم أفضل من الصلاة النافلة، وقال سفيان الثوري: ما من عمل أفضل من طلب العلم، إذا صحت فيه النية، وقال رجل للمعافي بن عمرَان: أيما أحب أقوم أصلي الليل كله أو أكتب الحَدِيث؟ فَقَالَ: حَدِيث تكتبه أحب إليَّ من قيامك من أول اللَّيْل إِلَى آخِره[٢].

(١) ابن رجب: مجموع رسائل ابن رجب ١/ ٣٢.
(٢) انظر هذه الأقوال عند: عبد الرزاق: المصنف (٢٠٤٦٩) والخطيب البغدادي: شرف أصحاب الحديث، ص٨١، وابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ١/ ٩٩، والغزالي: إحياء علوم الدين١/ ٨، والنووي: المجموع شرح المهذب ١/ ٢١، وابن القيم: مفتاح دار السعادة ١/ ١٢١، ١٧٨، وابن رجب: مجموع رسائل ابن رجب ١/ ٣٦.

وقد عقب الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ على تلك الأقوال المنقولة عن هؤلاء الأئمة الكبار بتعقيب مهم حيث قال: «الحاصل أنهم متفقون على أن الاشتغال بالعلم أفضل من الاشتغالات بنوافل الصوم، والصلاة، والتسبيح، ونحو ذلك من نوافل عبادات البدن، ومن دلائله سوى ما سبق أن نفع العلم يعم صاحبه، والمسلمين، والنوافل المذكورة مختصة به، ولأن العلم مصحح، فغيره من العبادات مفتقر إليه، ولا ينعكس، ولأن العلماء ورثة الأنبياء، ولا يوصف المتعبدون بذلك، ولأن العابد تابع للعالم مقتد به مقلد له في عبادته وغيرها واجب عليه طاعته، ولا ينعكس؛ ولأن العلم تبقى فائدته وأثره بعد صاحبه، والنوافل تنقطع بموت صاحبها؛ ولأن العلم صفة لله تعالى؛ ولأن العلم فرض كفاية أعني العلم الذي كلامنا فيه، فكان أفضل من النافلة»[1].

٣ ـ كل ما في الكون من الملائكة وغيرهم، حتى الحيتان في الماء يحتفي بطالب العلم ويدعو له ويستغفر له، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «**من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن طالب العلم يستغفر له من في السماء والأرض،**

(١) النووي: المجموع ١/ ٢٠، ٢١، وانظر: ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، ص٧٢.

حتى الحيتان في الماء»[١].

وثمة أقوال عدة في تفسير معنى وضع الملائكة أجنحتها لطالب العلم، فقيل إن معنى ذلك أنها تتواضع لطالب العلم توقيراً لعلمه، أو المراد الكف عن الطيران والنزول للذكر، أو معناه المعونة وتيسير المئونة بالسعي في طلبه، أو المراد تليين الجانب والانقياد، والفيء عليه بالرحمة والانعطاف، أو المراد حقيقته وإن لم تشاهد[٢]، ومنهم من فسر ذلك بأن الملائكة تحف بأجنحتها مجالس الذكر إلى السماء وهذا المعنى هو الذي رجحه ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]، وليس ثمة مانع من حمل النص على ظاهره.

ومن فوائد هذا الحديث أيضاً أنه ﷺ ذكر لفظي الطريق والعلم مطلقين دون تقييد «ليشملا في جنسهما أي طريق كان، من مفارقة الأوطان والضرب في البلدان إلى غير ذلك، وأي علم كان من علوم الدين قليلاً أو كثيراً»[٤].

أما عن علة استغفار دواب الأرض للعلماء، فقد ذكر

(١) رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٦٤)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد في المسند (٢١٧٦٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.
(٢) انظر: المباركفوري: تحفة الأحوذي ٣/ ٣٨٠، والعظيم آبادي: عون المعبود ٣/ ٣٥٤.
(٣) انظر: ابن رجب: مجموع رسائل ابن رجب ١/ ٢٧.
(٤) المباركفوري: تحفة الأحوذي ٣/ ٣٨٠.

بعض المحققين لذلك أوجهاً عدة، منها[١]: أن العلماء يأمرون الناس بالإحسان إلى المخلوقات كلها، وبإحسان قتل ما يجوز قتله، أو ذبحه من الحيوانات، فيتعدى نفعهم إلى الحيوانات كلها، فلذلك يستغفرون لهم، ومنها: أن سائر المخلوقات مطيعة لله، قانتة له، مسبحة له غير عصاة الثقلين: الجن والإنس، فكل الخلق المطيعين لله يحبون أهل طاعته، فكيف به وهو يعرف الله ويعرف حقوقه وطاعته؟ فمن كانت هذه صفته فإن الله يحبه ويزكيه ويثني عليه، ويأمر عباده من أهل السماء والأرض وسائر خلقه بمحبته والدعاء له، وذلك هو صلاتهم عليه، ويجعل له المودة في قلوب عباده المؤمنين، ولا تختص محبته بالحيوانات؛ بل تحبه الجمادات أيضاً، ومنها: أن العلم إذا ظهر في الأرض وعمل به درّت البركات، ونزلت الأرزاق، فيعيش أهل الأرض كلهم، حتى النملة وغيرها من الحيوانات ببركته، ويستبشر أهل السماء بما يرتفع لأهل الأرض من الطاعات والأعمال الصالحات، فيستغفرون لمن كان السبب في ذلك.

٤ ـ ومن مظاهر تكريم العلم وطلبته أن النبي ﷺ كان يرحب بطلبة العلم، ويوصي أصحابه بذلك، فعن صفوان بن عسال المرادي رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد، متكىء على برد له أحمر، فقلت له: يا رسول الله إني جئت

---

(١) انظر: ابن رجب: مجموع رسائل ابن رجب ١/٢٩، ٣٠.

أطلب العلم، فقال: «**مرحباً بطالب العلم، إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها، ثم يركب بعضهم بعضاً، حتى يبلغوا السماء الدنيا، من محبتهم لما يطلب**»[(١)].

وقد قطع النبي ﷺ خطبته من أجل تعليم رجل غريب جاء يسأل عن دينه وأقبل بكل اهتمامه على ذاك الطالب للعلم، فعن أبي رفاعة العدوي قال: «انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَخْطُبُ. قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! رَجُلٌ غَرِيبٌ، جَاءَ يَسْأَلُ عَنْ دِينِهِ، لَا يَدْرِي مَا دِينُهُ. قَالَ: فَأَقْبَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ. وَتَرَكَ خُطْبَتَهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَيَّ، فَأُتِيَ بِكُرْسِيٍّ، حَسِبْتُ قَوَائِمَهُ حَدِيداً، قَالَ: فَقَعَدَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَجَعَلَ يُعَلِّمُنِي مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ. ثُمَّ أَتَى خُطْبَتَهُ فَأَتَمَّ آخِرَهَا»[(٢)].

وفي هذا الحديث عدد من الفوائد والنكات اللطيفة التي أشار إليها النووي رحمه الله، ومنها «استحباب تلطف السائل في عبارته وسؤاله العالم. وفيه تواضع النبي ﷺ ورفقه بالمسلمين، وشفقته عليهم، وخفض جناحه لهم. وفيه المبادرة إلى جواب المستفتي، وتقديم أهم الأمور فأهمها، ولعله كان سأل عن الإيمان وقواعده المهمة. وقد اتفق العلماء على أن من جاء يسأل عن الإيمان وكيفية الدخول في الإسلام وجب إجابته

(١) رواه أحمد (١٧٦٢٣)، وابن حبان (٨٥)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٧١)، وشعيب الأرنؤوط في التعليق على صحيح ابن حبان.

(٢) رواه مسلم (٨٧٦).

وتعليمه على الفور»[١].

وقد أوصى النبي ﷺ أصحابه بطلبة العلم فقال: «**سيأتيكم أقوام يطلبون العلم فإذا رأيتموهم، فقولوا لهم: مرحباً مرحباً بوصية رسول الله صلى الله عليه**»[٢]، واقتداء بهدي الرسول وسُنَّته سار الصحابة على هذا المسلك، فعن أبي سعيد الخدري أنه قال لبعض من جاءه يطلب العلم: مرحباً بوصية رسول الله ﷺ، كان رسول الله ﷺ يوصينا بكم؛ يعني: طلبة الحديث»[٣].

٥ ـ وليس هذا الاهتمام البالغ بالعلم، أو الترحيب بطلبته مستغرباً، فقد جعل الله سبحانه من مهام نبيه ﷺ تعليم الناس، فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وأخبر النبي ﷺ عن نفسه أنه بعث معلماً، فقال: «**إن الله لم يبعثني معنّتاً، ولا متعنتاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً**»[٤]، ووصفه بعض أصحابه في طريقة تعليمه، ونصحه، وتوجيهه المخطئ، فقال: «بأبي هو وأمي، ما رأيت معلماً قبله ولا بعده، أحسن تعليماً

(١) النووي: شرح صحيح مسلم ٦/ ٤٧٢.
(٢) رواه ابن ماجه (٢٤٧)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه.
(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢٩٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٠).
(٤) رواه مسلم (١٤٧٨)، وأحمد (١٤١٠٦).

منه، فو الله ما كهرني، ولا ضربني، ولا شتمني»[١].

ولم يكن تعليمه ﷺ قاصراً على مكان بعينه، أو على مجموعة من المتعلمين يقصدونه في مسجده فحسب، بل كل مكان وطئته قدماه الشريفتان ﷺ كان قاعة تعليم، وساحة دعوة وتربية[٢].

ومن تأمل حق التأمل حسن رعاية النبي ﷺ للعرب «مع قسوة طباعهم، وشدة خشونتهم، وتنافر أمزجتهم، وكيف ساسهم، واحتمل جفاءهم، وصبر على أذاهم إلى أن انقادوا إليه، والتفوا حوله، وقاتلوا أمامه ودونه أعز الناس عندهم آباءهم وأقاربهم، وآثروه على أنفسهم، وهجروا في طاعته ورضاه أحباءهم وأوطانهم وعشيرتهم وإخوانهم، وكان كل ذلك وأعظم منه منهم له ﷺ، وهو لم يمارس الكتابة والقراءة، ولا طالع كتب الماضين، ولا أخبار المربين السالفين. من تأمل هذا تحقق له بنظر العقل أنه ﷺ هو المعلم الأول، والنبى المرسل وأنه سيد العالمين، صلوات الله وسلامه عليه»[٣].

٦ ـ وتبلغ أهمية العلماء، وعلو منزلتهم إلى درجة اعتبارهم ورثة الأنبياء، كما قال ﷺ: «**إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا**

(١) رواه مسلم (٥٣٧).
(٢) انظر: د. سعيد إسماعيل علي: السُّنَّة رؤية تربوية ص٢٤٨.
(٣) عبد الفتاح أبو غدة: الرسول المعلم وأساليبه في التعليم، ص١٠، ١١.

العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر»[١].

ومعنى وراثة العلماء للأنبياء «أنهم ورثوا ما جاء به الأنبياء من العلم، فهم خلفوا الأنبياء في أممهم بالدعوة إلى الله وإلى طاعته، والنهي عن معاصي الله، والذود عن دين الله»[٢].

٧ ـ يتوقف بقاء الأمة قوية صالحة مصلحة قائمة بأمر ربها، وناجية من الضلال ـ على بقاء العلماء، ويصير ضياعها وانحرافها مرتبطاً بقبض العلماء، واندثار العلم.

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبقِ عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا**»[٣].

ويستفاد من هذا الحديث أنه «ما دام العلم باقياً في الأرض فالناس في هدى، وبقاء العلم بقاء حملته؛ فإذا ذهب حملته ومن يقوم به، وقع الناس في الضلال»[٤]، ولذا فإن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويقبض، وينتشر الجهل ويكثر،

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وأحمد (٢١٧٦٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.
(٢) ابن رجب الحنبلي: مجموع رسائل ابن رجب ١/ ٤٧.
(٣) رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).
(٤) ابن رجب الحنبلي: مجموع رسائل ابن رجب ١/ ١٥.

فعن أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَثْبُتَ الْجَهْلُ**»[١]، وفي رواية: «**وَيَكْثُرَ الْجَهْلُ**»[٢].

ويصل هذا الرفع للعلم إلى أقصى درجاته قبل قيام الساعة مباشرة، حتى يؤول الحال بالناس إلى الجهل المطبق بكل أمور الدين، فعن حُذَيْفَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَدْرُسُ الْإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلَا صَدَقَةٌ وَلَا نُسُكٌ، وَيُسَرَّى عَلَى كِتَابِ اللهِ فِي لَيْلَةٍ فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَيَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ الْكَبِيرَةُ، يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَنَحْنُ نَقُولُهَا**»[٣].

وأخيراً يرفع العلم بالدين كلية حتى شهادة التوحيد، وتقوم الساعة على شرار الخلق ممن لا يعرفون الله سبحانه، فعن أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللهُ اللهُ**»، وفي رواية: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ يَقُولُ: اللهُ اللهُ**»[٤].

٨ ـ وقد صار العلم في الإسلام مناط التفضيل وعلو

---

(١) رواه البخاري (٨٠)، ومسلم (٢٦٧١).

(٢) رواه البخاري (٥٢٣١).

(٣) رواه ابن ماجه (٤١٦٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٧).

(٤) رواه مسلم (١٤٨).

المكانة والشرف الحقيقي، ولم يعد المال، أو النسب، أو الجمال هو القيمة الكبرى، وإنما مناط التقديم في المواقف المختلفة هو كم العلم النافع الذي حصله المكلف.

وقد سئل النبي ﷺ: «من أكرم الناس؟ فقال: **أتقاهم**، فقالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: **فيوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله**، قالوا: ليس عن هذا نسألك؟ قال: **فعن معادن العرب تسألون؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»(١). وفي غزوة أُحد عندما أصاب الناس جهد شديد، قال النبي ﷺ: «**احفروا وأوسعوا، وادفنوا الاثنين والثلاثة في قبر**، فقالوا: يا رسول الله فمن نقدم؟ قال: **قدموا أكثرهم قرآناً**»(٢).

كذلك صار العلم سبيلاً لإمامة الناس في الصلاة، أو في تولي الولايات المختلفة، ففي الصحيح أنه ﷺ قال: «**يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسُّنَّة**»(٣)، وقال أيضاً: «**ليلني منكم أولو الأحلام والنهى**»(٤). وفي «صحيح مسلم» عن نافع ابن عبد الحارث أنه لقي عمر بعسفان؟ وكان عمر يستعمله على مكة، فقال: من استعملت

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٣٧٨).

(٢) رواه أبو داود (٣٢١٥)، والنسائي (٢٠١٠)، والترمذي (١٧١٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصححة الألباني في صحيح النسائي

(٣) رواه مسلم (٦٧٣).

(٤) رواه مسلم (٤٣٢).

على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى، قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا، قال فاستخلفت عليهم مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله ﷻ، وإنه عالم بالفرائض، قال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضع به آخرين»[(١)].

بل إن المتأمل لكتاب الله، وما فيه من قصص الأنبياء، يدرك أن كل من نال شيئاً من شرف الدنيا والآخرة فإنما ناله بالعلم، وهناك الكثير من الشواهد على ذلك، ومنها ما حصل لآدم عليه السلام من تميزه على الملائكة واعترافهم له بتعليم الله له الأسماء كلها، ثم ما حصل له من تدارك المصيبة والتعويض عن سكنى الجنة بما هو خير له منها بعلم الكلمات التي تلقاها من ربه، وما حصل ليوسف عليه السلام من التمكين في الأرض، والعزة والعظمة بما علمه من تعبير الرؤيا، وكذلك ما حصل للخضر عليه السلام بسبب ما عنده من علم، حيث رحل إليه كليم الرحمٰن موسى، وتلطف معه في السؤال، وما حصل لسليمان عليه السلام من علم منطق الطير، وتسخير الجن، وكذلك ما حصل لسيد ولد آدم ﷺ من العلم العظيم الذي امتن الله عليه بتعليمه إياه[(٢)]، فقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾ [النساء: ١١٣].

(١) رواه مسلم (٨١٧).

(٢) انظر: ابن القيم: مفتاح دار السعادة ١/ ١٧٣، ١٧٤.

٩ ـ وفي قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨﴾ [آل عمران: ١٨] دلائل كثيرة على فضل العلم وأهله، ومنها أن الله سبحانه استشهد بأهل العلم دون غيرهم من البشر ووصفهم بكونهم أولي العلم، وهذا يدل على اختصاصهم به، وأنهم أهله وأصحابه، كما قرن شهادتهم بشهادته سبحانه وشهادة ملائكته، ولا شك أن في هذا الاستشهاد تزكية وتعديلاً لهم؛ لأن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول، وقد استشهد سبحانه بنفسه وهو أجل شاهد، ثم بخيار خلقه وهم ملائكته والعلماء من عباده، ويكفيهم بهذا فضلاً وشرفاً، لا سيما أنه استشهد بهم على أجل مشهود به وأعظمه وأكبره، وهو شهادة أن لا إلٰه إلا الله، والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم، كما أنه سبحانه جعل شهادتهم حجة على المنكرين، فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده[(١)].

وفي السُّنَّة أيضاً ما يشير إلى تزكية وتعديل حملة العلم ومبلغيه، حيث روي عنه ﷺ أنه قال: «**يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَتَأْوِيلَ**

(١) انظر: ابن القيم: مفتاح دار السعادة ١/ ٤٨، وانظر أيضاً: الغزالي: إحياء علوم الدين ١/ ٥، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٤١.

الْجَاهِلِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ»(١)، وقد استنبط بعض أهل العلم من هذا الحديث تعديل حملة العلم عموماً، حيث قال النووي: «وهذا إخبار منه ﷺ بصيانة العلم وحفظه، وعدالة ناقليه، وأن الله تعالى يوفق له في كل عصر خلفاء من العدول يحملونه وينفون عنه التحريف وما بعده فلا يضيع، وهذا تصريح بعدالة حامليه في كل عصر، وهكذا وقع ولله الحمد، وهذا من أعلام النبوة، ولا يضر مع هذا كون بعض الفساق يعرف شيئاً من العلم، فإن الحديث إنما هو إخبار بأن العدول يحملونه لا أن غيرهم لا يعرف شيئاً منه، والله أعلم»(٢).

كذلك ذكر ابن القيم أن هذا الحديث يتضمن تعديل النبي ﷺ «لحملة العلم الذي بعث به، وهو المشار إليه في قوله هذا العلم، فكل من حمل العلم المشار إليه لا بد وأن يكون عدلاً، ولهذا اشتهر عند الأمة عدالة نقلته وحملته اشتهاراً لا يقبل شكّاً ولا امتراء، ولا ريب أن من عدله رسول الله لا يسمع فيه جرح، فالأئمة الذين اشتهروا عند الأمة بنقل العلم النبوي وميراثه كلهم عدول بتعديل رسول الله، ولهذا لا يقبل

---

(١) رواه البزار (٩٤٢٣)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٨٨٤)، وقال الألباني: تخريج مشكاة المصابيح (٢٣٩): مرسل، لكن روي موصولاً من طريق جماعة من الصحابة وصحح بعض طرقه الحافظ العلائي.

(٢) النووي: تهذيب الأسماء واللغات ١/١٧، وانظر أيضاً: محمد بن عبد الرحمٰن الوَصَابي: نشر طيّ التعريف في فضل حملة العلم الشريف، ص٤٠.

قدح بعضهم في بعض، وهذا بخلاف من اشتهر عند الأمة جرحه والقدح فيه، كأئمة البدع ومن جرى مجراهم من المتهمين في الدين، فإنهم ليسوا عند الأمة من حملة العلم، فما حمل علم رسول الله إلا عدل، ولكن قد يغلط في مسمى العدالة، فيظن أن المراد بالعدل من لا ذنب له وليس كذلك، بل هو عدل مؤتمن على الدين، وإن كان منه ما يتوب الى الله منه، فإن هذا لا ينافي العدالة كما لا ينافي الإيمان والولاية»[(١)].

ومن تطبيقات هذا التعديل النبوي لحملة الحديث ورواته ما ذهب إليه عدد كبير من أهل العلم ـ وإن كان في المسألة خلاف ـ إلى القول بتعديل كل من عرف بحمل العلم والعناية به، ولو لم نجد تزكية فيه من أحد المعدلين، وقد تبنى هذا القول كل من: ابن عبد البر، والمزي، وابن القيم، والذهبي، وابن الوزير اليمني، وغيرهم[(٢)].

كذلك امتد هذا التعديل عند بعض قضاة المسلمين إلى تعديل حملة العلم في مجال التقاضي، ومن أمثلة ذلك ما جرى

(١) ابن القيم: مفتاح دار السعادة ١/ ١٦٣.

(٢) انظر تفصيل ذلك عند: ابن عبد البر: التمهيد ١/ ٢٨، وابن القيم: مفتاح دار السعادة ١/ ١٦٣، والسخاوي: فتح المغيث ٢/ ١٦، ١٧، والسيوطي: تدريب الراوي ١/ ٣٥٥، وثمة عرض موسع للمسألة عند د. جنيد أشرف إقبال: العدالة والضبط وأثرهما في قبول الأحاديث أو ردها، ص١٣٦.

في مجلس أحد القضاة ـ وهو إسماعيل بن إسحاق ـ حيث ادعي بعضهم على آخر دعوى، فسأل القاضي المدعى عليه، فأنكر، فقال للمدعي: «ألك بيِّنة؟ قال: نعم، فلان وفلان. قال: أما فلان، فمن شهودي، وأما فلان، فليس من شهودي. قال: فيعرفه القاضي؟ قال: نعم. قال: بماذا؟ قال: أعرفه بكتب الحديث. قال: فكيف تعرفه في كتبه الحديث؟ قال: ما علمت إلا خيراً. قال: فإن النبي ﷺ قال: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله**»، فمن عدله رسول الله ﷺ أولى ممن عدلته أنت. قال: فقم، فهاته، فقد قبلت شهادته»(١).

٩ ـ ومما يدل على فضل العلم أيضاً أنه الشيء الوحيد الذي أمر الله نبيه ﷺ أن يسأله المزيد منه، فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤] وكما يقول الآلوسي فقد «استدل بالآية على فضل العلم، حيث أمر صلّى الله عليه وسلّم بطلب زيادته، وذكر بعضهم أنه ما أمر ﷺ بطلب الزيادة في شيء إلا العلم»(٢).

وقد امتثل ﷺ لأمر ربه بطلب الزيادة في العلم، فكان إِذَا استيقظ من الليل قَالَ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، سُبْحَانَكَ، اللَّهُمَّ أَسْتَغْفِرُكَ لِذَنْبِي، وَأَسْأَلُكَ رَحْمَتَكَ، اللَّهُمَّ زِدْنِي عِلْماً، وَلَا تُزِغْ قَلْبِي بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنِي، وَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، إِنَّكَ أَنْتَ**

(١) الخطيب البغدادي: شرف أصحاب الحديث، ص٢٩.
(٢) الآلوسي: روح المعاني ٨/ ٥٧٨.

الْوَهَّابُ»[(١)]، وعن أبي هريرة قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي، وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي، وَزِدْنِي عِلْماً، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ**»[(٢)] كما دعا ﷺ لأحد أصحابه وهو ابن عباس أن يعلمه الله الكتاب فقال ﷺ: «**اللهم علمه الكتاب**»[(٣)].

١٠ ـ ولا شيء مثل العلم في إظهار فضل الإنسان وشرفه، ومما يدل على ذلك أن الله سبحانه حينما أراد إظهار تفضيل آدم، وتمييزه وفضله على الملائكة علمه الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة، فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: ٣١].

وفي قصة يوسف عليه السلام، نجد أن جمال شكله الظاهر كان سبباً في افتتان امرأة العزيز به ودخوله السجن، بينما كانت حكمته وعلمه، ولا سيما بتأويل الرؤى، سبباً في خروجه من السجن، وتوليه منصب عزيز مصر[(٤)].

وبهذا العلم مع النبوة استحق يوسف عليه السلام أن يكون أكرم الناس، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قِيلَ: «يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ أَكْرَمُ

(١) رواه أبو داود (٥٠٦١)، وسكت عنه وحسنه ابن حجر في نتائج الأفكار(١/١١٨)، وضعفه الألباني.
(٢) رواه الترمذي (٣٥٩٩)، وابن ماجه (٢٥١)، وضعفه الألباني.
(٣) رواه البخاري (٧٥).
(٤) ابن القيم: مفتاح دار السعادة ١/٥٣.

النَّاسِ قَالَ: **أَتْقَاهُمْ**، فَقَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ قَالَ: **فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ ابْنُ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ خَلِيلِ اللهِ** قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ قَالَ: **فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونَ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا**»[١].

ولم يقتصر فضل العلم على عالم الإنسان وحده، بل امتد أيضاً إلى عالم الحيوان، فقد جعل الله سبحانه صيد الكلب الجاهل ميتة يحرم أكلها، وأباح صيد الكلب المعلم[٢]، فقال تعالى: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ﴾ [المائدة: ٤] وفي الآية دليل على «فضيلة العلم، وأن الجارح المعلم ـ بسبب العلم ـ يباح صيده، والجاهل بالتعليم لا يباح صيده»[٣] ومن أحاديث السُّنَّة الدالة على ذلك قول النبي ﷺ: «**إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ الْمُعَلَّمَ فَقَتَلَ فَكُلْ، وَإِذَا أَكَلَ فَلَا تَأْكُلْ، فَإِنَّمَا أَمْسَكَهُ عَلَى نَفْسِهِ**»[٤].

وقد أثمرت تلك التوجيهات القرآنية والنبوية: قيام حركة علمية لا نظير لها في المجتمع الإسلامي، ولعل الرحلة في طلب الحديث والعلم عموماً تعد مثالاً منقطع النظير لما قام به الأسلاف رضوان الله عليهم من جهد هائل وسعي فذ لتحصيل

(١) رواه البخاري (١٧٥)، ومسلم (١٩٢٩).
(٢) ابن القيم: مفتاح دار السعادة ١/ ٥٥.
(٣) السعدي: تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان ص٢٢١.
(٤) رواه البخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٣٧٨).

العلم من مختلف مظانه، وجمعه وحفظه وترتيبه وتدوينه، ثم نشره والتأليف في فنونه المختلفة، ولعل بعض ما حكي من رحلات الأئمة القدامى في ظل إمكاناتهم المحدودة ـ مالاً وطرق سفر ووسائل انتقال ـ يعد ضرباً من ضروب الخيال في أذهان الأجيال المعاصرة(١).

ومن العجيب جدّاً في حضارة الإسلام وتاريخه التليد أن يمتد الحرص على حب العلم وأهله، وتقريبهم، والإحسان إليهم، وتحصيل الكتب، والمشاركة في فنون العلم المختلفة بسهم ما بين مستقل ومستكثر ـ إلى الخلفاء والأمراء، وهم في الغالب مشغولون بشئون الملك، وتدبير أحوال الناس، وتوسيع ملكهم وحمايته من الطامعين، وما بقي لديهم من وقت فللهو والمتعة، ما حل منها وما حرم، إلا من رحم الله وقليل ما هم.

ومع ذلك فقد وجدنا نماذج عدة من سيرة بعض الحكام المسلمين الذين حرصوا على العلم وقربوا أهله، بل صرح بعضهم أنه لم يبق له من لذات الدنيا لم ينله إلا أن يجلس للتحديث كما يفعل المحدثون، وقد «قيل للمنصور: هل بقي من لذات الدنيا شيء لم تنله؟ قال: بقيت خصلة، أن أقعد في

(١) وثمة نماذج لذلك في كتاب الخطيب البغدادي: الرحلة في طلب الحديث، وانظر أيضاً: عبد الفتاح أبو غدة: صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، ص٣٣.

مصطبة وحولي أصحاب الحديث، فيقول المستملي، من ذكرت رحمك الله، قال: فغدا عليه الندماء، وأبناء الوزراء بالمحابر والدفاتر، فقال: لستم بهم، إنما هم الدّنسة ثيابهم، المتشققة أرجلهم، الطويلة شعورهم، برد الآفاق، ونقلة الحديث»[١] وقال المأمون: «ما اشتهي من لذات الدنيا إلا أن يجتمع أصحاب الحديث عندي، ويجيء المستملي، فيقول: من ذكرت أصلحك الله»[٢].

ومن أمثلة الخلفاء والأحكام الذين اشتهروا بحب العلم وأهله ـ إضافة للخلفاء الراشدين الأربعة، وهم أئمة العلم والفقه والديانة ـ معاوية بن أبي سفيان ﵁، وعمر بن عبد العزيز، وأبي جعفر المنصور، وهارون الرشيد، والمعتضد بالله بن المتوكل على الله، والمتوكل على الله بن يعقوب بن المتوكل على الله وغيرهم[٣].

ولم يقتصر الأمر على حب العلم والحرص على تحصيله، بل وجدت نماذج لرحلة نفر من الحكام لسماع الحديث، وممن حكي عنه هذا الأمر هارون الرشيد الذي رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على الإمام مالك، كذا

(١) ابن السمعاني: أدب الإملاء والاستملاء، ص١٦٣، وانظر أيضاً: السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص١٩٨.
(٢) ابن السمعاني: أدب الإملاء والاستملاء، ص١٦٣، ١٦٤.
(٣) انظر: مقدمة قاسم علي سعد لتحقيق كتاب الأمصار ذوات الآثار للذهبي، ص٥٤، ٥٥.

نقل هذا الأمر نفسه عن السلطان المجاهد صلاح الدين الأيوبي، رَحِمَهُ اللَّهُ، وفي ذلك كله يقول السيوطي: «وقال القاضي الفاضل في بعض رسائله: ما أعلم أن لملك رحلة قط في طلب العلم إلا للرشيد، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك رَحِمَهُ اللَّهُ قال: وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد في خزانة المصريين، قال: ثم رحل لسماعه السلطان صلاح الدين بن أيوب إلى الإسكندرية، فسمعه على بن طاهر بن عوف، ولا أعلم لهما ثالثاً»[1].



(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٢١٧.



المبحث الثاني

تحديد مفهوم العلم، وتوسيع مجالاته

ومع أن ظاهرة العلم من أخطر ظواهر الحضارة الإنسانية، وأكثرها تمثيلاً إيجابياً لحضور الإنسان في هذا الكون، فإن مصطلح العلم ـ رغم شيوعه وانتشاره، وكثرة ترداده ـ يعد من أكثر المصطلحات التي تباينت الآراء تبايناً شديداً في تعريفها[(١)]، ووضع مفهوم منضبط لها، يعبر عن حقيقتها وينطبق على شتى عناصرها وأفرادها[(٢)]، حيث دأب أصحاب كل فن على اعتبار فنهم هو الجدير وحده بوصف العلم، دون كل ما سواه[(٣)].

(١) انظر: أحمد قوشتي: مناهج الاستدلال على مسائل العقيدة الإسلامية في العصر الحديث، ص٦٣٣ ـ ٦٣٨.

(٢) انظر: د. يمنى طريف الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين، ص٥، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٦٤، ديسمبر ٢٠٠٠م، ود. علي عبد المعطي: المدخل إلى الفلسفة، ص٣٦٧، ود.أحمد سليم سعدان: مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام، ص١٢.

(٣) انظر: محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين ٦/٥٨٣، ٥٨٤، دار الفكر، بيروت، ومحمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن ١/١٤، ١٥، تحقيق: فؤاد أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، ود. راجح الكردي: نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، ص٣٤، ود. عبد الرحمن بن زيد الزنيدي: =

وقد حفلت كتب المتكلمين، والأصوليين، وعلماء الاصطلاح بكلام مطول عن مفهوم العلم، وحدث خلاف بينهم حول تعريفه[(١)]، وهل هو ممكن أم أن ذلك متعذر لكونه من الضروريات، وإن كان الرأي السائد عند جمهور الأصوليين والمتكلمين من المعتزلة، والأشاعرة، وغيرهم هو إمكان تعريف العلم، وقد ذكروا له حدوداً وتعريفات شتى[(٢)]، من أشهرها أنه «الاعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع»[(٣)] أو أنه «صفة ينكشف بها المطلوب انكشافاً تامّاً»[(٤)]، ومن الواضح أن

= مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي دراسة نقدية في ضوء الإسلام، ص٤٥ ـ ٤٩.

(١) وقد وصل عدد هذه التعريفات إلى خمسة عشر تعريفاً عند حاجي خليفة في كشف الظنون، المقدمة ١/٣، ٤ بينما أوصلها صديق حسن خان في أبجد العلوم ١/٢٧ ـ ٣١ إلى سبعة عشر تعريفاً، وانظر أيضاً: الشوكاني: إرشاد الفحول ١/١٨ ـ ٢٠.

(٢) انظر تفصيل ذلك كله ونماذج لتلك التعريفات الكلامية والأصولية عند كل من: القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة، ص٤٦، والرازي: مفاتيح الغيب ٢/١٨٤ ـ ١٨٧، والإيجي: المواقف، ص٩ ـ ١١، والشوكاني: إرشاد الفحول ١/ ، وحاجي خليفة: كشف الظنون، المقدمة ١/٣ ـ ٤، وصديق حسن خان أبجد العلوم ١/٢٦ ـ ٣١، ود. راجح الكردي: نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، ص٣٤ ـ ٤٦.

(٣) المناوي: التوقيف على مهمات التعاريف، ص٥٢٣، دار الفكر، بيروت، ١٤١٠هـ، وانظر أيضاً: الجرجاني: التعريفات، ص١٩٩، وزكريا الأنصاري: الحدود الأنيقة، ص٦٦.

(٤) الشوكاني: إرشاد الفحول ١/٢٠، وانظر: صديق حسن خان: أبجد العلوم ١/٢٧ ـ ٣١.

كلا التعريفين واسع جدّاً، بحيث يصلح لأن ينطبق على شتى أنواع المعرفة.

ومما يجدر ذكره هنا أنه بإزاء هذا الاهتمام الأصولي والكلامي بتعريف العلم، فإننا لا نكاد نجد اهتماماً مماثلاً لدى علماء السلف، وأصحاب الحديث رغم كثرة ما ألفوه من كتب ومصنفات مستقلة في فضل العلم، وآداب تحصيله، وقد جرت العادة لديهم أن يبدءوا مباشرة بالكلام عن فضل العلم وما يتعلق به من مسائل، دون الوقوف طويلاً عند تعريفه[(١)]، وربما كان سبب ذلك هو وضوح المصطلح لديهم، وعدم احتياجه إلى مزيد شرح أو بيان، إضافة إلى تركز اهتمامهم على الجوانب العملية، دون المسائل النظرية المجردة[(٢)].

وإذا أخذنا كتاب العلم من صحيح البخاري نموذجاً لهذا المسلك، فسوف نجد أنه بدأ هذا الكتاب بباب عنوانه «فضل العلم»[(٣)] دون أن يقف عند مسألة التعريف، وقد نبه ابن حجر

(١) ولا ينفي ذلك بالطبع وجود تعريفات لبعض العلماء المتأخرين، كتعريف ابن عبد البر للعلم في كتابه: جامع بيان العلم، ص٧٨ بأنه التيقن والتبين، وكل من استيقن شيئاً وتبيّنه فقد علمه، وتعريف ابن القيم له في كتابه الفوائد، ص٨٤ بأنه «نقل صورة المعلوم من الخارج، وإثباتها في النفس».

(٢) انظر: د. عبد الرحمٰن بن زيد الزنيدي: قضايا المعرفة في الفكر المعاصر والموقف السلفي، ص١٢٠، ١٢١.

(٣) انظر: صحيح البخاري، كتاب العلم، باب فضل العلم، ١/ ١٤٠ (الفتح).

في فتح الباري على ذلك، حيث نقل عن ابن العربي قوله: «بدأ المصنف بالنظر في فضل العلم قبل النظر في حقيقته وذلك لاعتقاده أنه في نهاية الوضوح، فلا يحتاج إلى تعريف، أو لأن النظر في حقائق الأشياء ليس من فن الكتاب، وكل من القدرين ظاهر؛ لأن البخاري لم يضع كتابه لحدود الحقائق وتصورها، بل هو جار على أساليب العرب القديمة، فإنهم يبدءون بفضيلة المطلوب للتشويق إليه، إذا كانت حقيقته مكشوفة معلومة، وقد أنكر ابن العربي في شرح الترمذي[١] على من تصدى لتعريف العلم، وقال: هو أبين من أن يبين»[٢].

وأما مفهوم العلم في الفكر الغربي، فقد ظل منطوياً تحت لواء الفلسفة قروناً طويلة، ولم تكن هناك فوارق بين العلوم التي تقوم على المشاهدة والتجربة، والعلوم المستندة إلى النظر العقلي والتفكير المجرد، وقد استمر الحال على ذلك حتى مطلع العصر الحديث، وكما يشير بعض مؤرخي الفلسفة، فإن بداية الانفصال بين العلم والفلسفة ترجع إلى نهاية القرن الثامن عشر، وكان أول من استخدم كلمة (science) بمعناها التجريبي الراهن في إنجلترا هو المجمع البريطاني لتقدم العلوم الذي أنشيء عام ١٨٣١م[٣].

---

(١) وانظر كلام ابن العربي في: عارضة الأحوذي ١٠/١١٣، ١١٤، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

(٢) ابن حجر: فتح الباري ١/ ١٤٠، ١٤١.

(٣) انظر: أ. وولف: فلسفة المحدثين والمعاصرين، ص٣، ٤، ترجمة د. أبو العلا =

وهكذا صار مصطلح العلم في الفكر الغربي الحديث لا يكاد يطلق سوى على العلم التجريبي، والقائم على الملاحظة والتجربة الحسية[(١)]، وهو مفهوم مادي في طابعه العام، ويترتب عليه قصر وتضييق لدائرة العلم بغير مستند صحيح[(٢)].

وإذا ما انتهينا بعد هذا كله إلى استخلاص مفهوم العلم

= عفيفي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، ود. توفيق الطويل: أسس الفلسفة، ص١٢٩ ـ ١٣٢، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٥٥م، ود. يحيى هويدي: مقدمة في الفلسفة العامة، ص٤٨ ـ ٥٠، دار الثقافة للنشر والتوزيع الطبعة التاسعة، ١٩٨٩م، ود. إمام عبد الفتاح إمام: مدخل إلى الفلسفة، ص٧١ ـ ٧٨.

(١) انظر في هذا التعريف: إميل بوترو: العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، ص٩، ترجمة: د. أحمد فؤاد الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م، ومحمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين ٦/ ٥٨٤، ود.عبد الحليم محمود: موقف الإسلام من الفن والعلم والفلسفة، ص٤٦، ود. يحيى هويدي: مقدمة في الفلسفة العامة، ص٤٨ والموسوعة العربية العالمية، مادة (العلم)، والموسوعة الثقافية، ص٦٧٤، ود. إبراهيم أحمد عمر: العلم والإيمان مدخل إلى نظرية المعرفة في الإسلام، ص٩، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٥م.

(٢) وقد انتقد هذا المفهوم الكثير من الدارسين المحدثين مثل مصطفى صبري: موقف العقل والعلم والعالم من رب العالم، وعباده المرسلين: ٢/ ٩٢، ١٠٧، ٢٧٦، ومحمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين ٦/ ٥٨٤، ٥٨٥، ود.عبد الحليم محمود: موقف الإسلام من الفن والعلم والفلسفة، ص٤٦، ود. أحمد فؤاد الأهواني في مقدمة ترجمته لكتاب إميل بوترو: العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، ص٤، ٥، وأنور الجندي: موسوعة مقدمات العلوم والمناهج ٧/ ٥٧، دار الأنصار ١٩٨٦م، ود. يحيى هاشم فرغل: الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة، ص٥، ٦، دار المعارف ١٩٨٤م.

في القرآن والسُّنَّة فسوف نجد عدداً كبيراً من التعريفات التي قدمها نفر من العلماء المعاصرين[١] وكلها تلح على شمول معنى العلم في الإسلام، وأنه ليس خاصاً بعلم الشرائع والأحكام فحسب، وإنما يراد به كل معرفة تنكشف بها حقائق الأشياء، وكل إدراك يفيد الإنسان توفيقاً في القيام بمهمته العظمى التي ألقيت على كاهله منذ قُدِّر خلقه، وجُعل خليفة في الأرض، وهي عمارتها واستخراج كنوزها وإظهار أسرار الله فيها، سواء أكان موضوع ذلك الكون والطبيعة، أم موضوعه الإنسان، أم موضوعه الوجود والغيب، وسواء أكانت وسيلة معرفته الحس والتجربة، أم العقل والبرهان، أم الوحي والنبوة[٢].

وقد أشار الشيخ شلتوت إلى «أن العلم في نظر القرآن ليس خاصاً بعلم الشرائع والأحكام من حلال وحرام، وإنما

(١) انظر: أحمد قوشتي: مناهج الاستدلال على مسائل العقيدة، ص٦٣٥.

(٢) انظر محمود شلتوت: من توجيهات الإسلام ص١٢٢، دار الشروق، الطبعة الثامنة، ٢٠٠٤م، والعقاد: التفكير فريضة إسلامية، ص٨٥، ٨٦، د. عبد الحليم محمود: موقف الإسلام من الفن والعلم والفلسفة، ص٦٨، مطابع دار الشعب بالقاهرة، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م، ود. صلاح رسلان: العلم في منظوره الإسلامي، ص١٦، ود. محمود عبد الحكيم عثمان: جهود المفكرين المحدثين في مقاومة التيار الإلحادي، ص١٥٢، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م، ود. يوسف القرضاوي: العقل والعلم في القرآن الكريم، ص١٤٩، وانظر اتجاهاً آخر في تعريف العلم لدى الشيخ محمد بن صالح العثيمين: كتاب العلم، ص١٣، ١٤، إعداد: فهد بن ناصر السليمان.

العلم: كل إدراك يفيد الإنسان توفيقاً في القيام بمهمته العظمى التي ألقيت على كاهله منذ قدر خلقه، وجعل خليفة في الأرض، وهي عمارتها، واستخراج كنوزها، وإظهار أسرار الله فيها، ومعنى هذا: أن العلم في الإسلام ـ بمعناه العام الشامل ـ يشمل العلوم الدينية، والعلوم المادية الكونية على اختلاف موضوعاتها»(١).

ولعل بإمكاننا أن نخلص من هذه التعريفات وغيرها الكثير(٢) إلى ما نظنه أقرب التعريفات، وأوجزها فنقول: إن مصطلح العلم في القرآن والسُّنَّة يراد به «**كل معرفة صحيحة، مبنية على الحجة البرهان**».

ومن خلال محترزات التعريف المذكورة يخرج الكثير مما يظنه البعض علماً، مع أنه لا يستحق هذا الوصف، مثل الظنون والشبه، والأوهام والأساطير، وتقليد السابقين من الآباء والأجداد، وكذا كل معرفة لم يقم دليل معتبر على صحتها وثبوتها.

---

(١) محمود شلتوت: منهج القرآن في بناء المجتمع، ص٢٨.

(٢) انظر على سبيل المثال: مصطفى صبري: موقف العقل والعلم والعالم من رب العالم، وعباده المرسلين ٢/ ٢٧٦، المكتبة الإسلامية ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م، وأنور الجندي: موسوعة مقدمات العلوم والمناهج ٧/ ١٢ ـ ١٥، ود. أحمد فؤاد باشا: في فقه العلم والحضارة، ص٨، ٩، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٩٧م، ود. زغلول النجار: قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر، ص٣٨، ٣٩، كتاب الأمة، العدد ٢٠، أكتوبر، ١٩٨٨م.

ومن مميزات هذا التعريف أنه أعم كثيراً من ذلك المعنى الضيق الذي يقصر العلم على المعرفة التجريبية وحدها، كما أن العلم بهذا المفهوم يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحقيقة الإنسان نفسه، وعلاقته بالله، وحياته على الأرض، وغايته التي خُلق من أجلها وهي العبادة، ومن لوازمها إعمار الكون في ضوء الوسائل المعرفية التي وهبها الله له؛ إضافة لنور الوحي الذي زوَّده بنوع آخر من المعرفة لم يكن في استطاعته الوصول إليه بحال.

ومن مميزات هذا التعريف أيضاً أنه يتناسق مع مقاصد العلم في الإسلام، والتي تتمثل في تعريف الإنسان بخالقه، وعونه على القيام بالغاية التي خلق من أجلها، كما يتميز العلم في الإسلام بأنه ذو غاية عملية، فالعلم إنما يراد للعمل والاستفادة من ورائه، وكل علم لا يؤدي إلى عمل فهو حجة على صاحبه، وربما كان وبالاً عليه، ويضاف لذلك كله أن مفهوم العلم في الإسلام خالٍ تماماً من النزعة العنصرية التي تفشت في ممارسات الحضارة الغربية الحديثة، فلا يصح أن تحتكر العلم ومنجزاته طائفة من البشر، ويُحرم منها آخرون، وحينما كان المسلمون رواد الحضارة وسادة الأمم، شارك في مسيرة العلم بمفهومه العام سائر الأجناس والشعوب التي كانت تعيش تحت ظل دولة الإسلام[١].

(١) انظر: د. أحمد عبد الحميد غراب: الإسلام والعلم، ص٤١ ـ ٥٢، وأحمد قوشتي: مناهج الاستدلال على مسائل العقيدة، ص٦٣٧، ٦٣٨.

وثمة ملاحظات مهمة على هذا التعريف الشامل والواسع للعلم في الإسلام، يجدر بنا أن نشير إليها في عجالة:

الملاحظة الأولى: أن هذا التعريف يتسم بالعمومية والشمول، ويصدق على سائر العلوم الشرعية وغير الشرعية، طالما أنها متضمنة لمعارف صحيحة مبنية على الدليل والبرهان، والعلم في حقيقة معناه يراد به الإدراك الصحيح للأشياء، وهو معنى كلي لا يدل على موضوع معين أو علم محدد بالذات، بقدر ما يعني عدة خصائص، وسمات مشتركة في كل نشاط عقلي أو عملي، حين ينصرف بشكل منهجي منظم لتفسير وفهم موضوعات معينة[١].

أما تصنيف العلوم إلى دينية ودنيوية، أو نقلية وعقلية، أو نظرية وتجريبية، فهو تصنيف يعتمد على الصفات المعبرة عن موضوع العلم أو مصادره، أو الطرائق التي يتم تحصيله بها[٢]، وإن كان لفظ العلم يصدق على كل معرفة مطابقة للواقع، سواء أكان هذا الواقع غيباً أو شهادة وسواء أكان حسيّاً أو نفسيّاً أو عقليّاً، والعلوم وإن صدق عليها جميعاً هذا المفهوم إلا أنها تختلف باختلاف مجالاتها ومناهجها، والمسلم يعترف بكل حقيقة فيها، إذا قام عليها دليل صحيح[٣].

---

(١) انظر: د. أحمد فؤاد باشا: في فقه العلم والحضارة، ص٨، ٩.

(٢) المصدر السابق، ص٨.

(٣) انظر: د. جعفر شيخ إدريس: علاقة العلم بالدين، مجلة البيان، ص٣٢، العدد ٢٣٨، جمادى الثانية، ١٤٢٨هـ - يونيو ٢٠٠٧م.

وأظن أنه يمكننا أن نخطو خطوة أبعد فنقول ـ كما قرر ذلك بوضوح شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ ـ إن العلوم أو الأدلة في الإسلام لا تنقسم إلى شرعية وعقلية، أو شرعية وعلمية، وإنما تنقسم إلى شرعية وغير شرعية، والدليل أو العلم الشرعي: إما أن يراد به ما أثبته الشرع ودلَّ عليه ـ وهذا يُعلم بالعقل والشرع تارة، ويُعلم بخبر الصادق وحده تارة ـ وإما أن يراد به ما أباحه الشرع وأذن فيه؛ فيدخل في ذلك ما أخبر به الصادق، وما دلَّ عليه القرآن، وما دلت عليه وشهدت به الموجودات[1].

والميزة الأساسية لهذا التقسيم أنها تقضي تماماً على أي خصام أو نزاع مفتعل بين الشرع أو الأدلة النقلية، ممثلة في الكتاب والسُّنَّة من جهة، وبين العقل أو حقائق العلم التجريبي من جهة أخرى، حيث تصير كل معرفة صحيحة بمثابة دليل أو علم شرعي؛ لأن الشرع أباحها وأذن فيها، ومن المستحيل أن تتعارض مع الأدلة النقلية التي جاء بها الشرع؛ لأن الحجج الصحيحة تتساند وتتعاضد، ولا تتعاند أو تتعارض.

الملاحظة الثانية: لا يستطيع أحد أن ينازع في أن العلوم الدينية ـ أعني علوم القرآن والسُّنَّة وما تفرع منهما ـ هي

---

(١) انظر: ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل ٣/ ٣٠٣، ١٠/ ١٢٢ والنبوات، ص١٢، ٣٠، ٣٥، وابن القيم: مختصر الصواعق المرسلة ١/ ١١٧، ود.عبد الرحمٰن بن صالح المحمود: موقف ابن تيميَّة من الأشاعرة ١/ ٢٤٨، وابن القيم: مختصر الصواعق المرسلة ١/ ١١٧.

المقصودة بوصف العلم ابتداء في النصوص الشرعية، وجل ما ورد في فضل العلم إنما يتوجه إليها بالدرجة الأولى؛ لأن القرآن كتاب هداية، وليس كتاباً في تعليم العلوم الطبيعية أو التجريبية.

ولأهل العلم نصوص عدة في بيان المقصود بالعلم النافع المقصود أصالة بالمدح والثناء في الكتاب والسُّنَّة، ومن ذلك ما ذكره ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أن العلم النافع يقصد به «ضبط نصوص الكتاب والسُّنَّة، وفهم معانيها والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث. وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام والزهد والرقائق والمعارف وغير ذلك، والاجتهاد على تمييز صحيحه من سقيمه أولاً، ثم الاجتهاد على الوقوف في معانيه وتفهمه ثانياً، وفي ذلك كفاية لمن عقل وشغل، لمن بالعلم النافع عني واشتغل»[(١)].

كذلك أشار الحافظ ابن حجر في أول شرحه لكتاب العلم من صحيح البخاري إلى أن المراد بالعلم الذي دلت النصوص على فضله، وأمر الله نبيه ﷺ بسؤال الله الازدياد منه: هو «العلم الشرعي، الذي يفيد معرفة ما يجب على المكلف من أمر عباداته ومعاملاته، والعلم بالله وصفاته، وما

(١) ابن رجب: بيان فضل علم السلف على علم الخلف، ص٧٠، ٧١.

يجب له من القيام بأمره، وتنزيهه عن النقائص، ومدار ذلك على التفسير، والحديث، والفقه»[(١)].

لكن يبقى مع ذلك أنه من غير الدقيق، ولا المتفق مع أدلة الشرع أن يحصر معنى العلم أو يقتصر ـ عند وروده مطلقاً ـ على العلوم الدينية وحدها، مثلما شاع هذا المعنى للأسف الشديد في أذهان بعض المسلمين[(٢)].

وثمة أدلة كثيرة من القرآن والسُّنَّة على عدم حصر مصطلح «العلم» في العلوم الدينية وحدها[(٣)]، بل يصدق على كل معرفة صحيحة، مؤيدة بالدليل والبرهان، أيّاً كان مجالها.

ومن نصوص القرآن في هذا المعنى: قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء: ٨٠]، وقوله تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ [يونس: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ﴾ [يّس: ٦٩]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [يونس: ٧٩]، وقوله تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

(١) ابن حجر: فتح الباري ١/ ١٦٩، وانظر أيضاً: العظيم آبادي: : عون المعبود ٣/ ٣٥٤.

(٢) انظر: د. عبد الحميد مدكور: في الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر، ص٤٦، ٤٧.

(٣) المصدر السابق، ص٤٧.

وأما أحاديث السُّنَّة، فقد ورد فيها إطلاق مصطلح العلم على مجالات عديدة: منها الطب، كما في قوله ﷺ: «**ما أنزل الله ﷻ داء إلا أنزل له دواء، علمه من علمه وجهله من جهله**»[١]، ومنها الرمي واستعمال السلاح، كما في قوله ﷺ: «**من علم ـ وفي رواية من تعلم ـ الرمي ثم تركه، فليس منا، أو قد عصى**»[٢].

ومنها تعلُّم اللغات الأخرى، كما في حديث زيد بن ثابت أنه قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أتعلم له كلمات من كتاب يهود، قال: إني والله ما آمن يهود على كتابي، قال: فما مر بي نصف شهر حتى تعلمته له، قال: فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم، وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم»[٣]. وفي رواية أخرى عند الترمذي عن زيد بن ثابت قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أتعلم السريانية»[٤].

الملاحظة الثالثة: أن ثمة قيداً آخر في تعريف العلم المتقدم آنفا لم نذكره وهو «النفع والإفادة»، ومن المهم جداً

(١) رواه أحمد (٣٩١٢، ٤٢٢٤)، وصححه شعيب الأرنؤوط في التعليق على المسند، والألباني في السلسلة الصحيحة (٤٥١).
(٢) رواه مسلم (١٩١٩)
(٣) رواه البخاري معلقاً في كتاب الأحكام، باب ترجمة الحكام، وهل يجوز ترجمان واحد، ووصله الترمذي (٢٧١٥) وقال الألباني: حسن صحيح.
(٤) رواه الترمذي (٢٧١٥)، وقال الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (٤٥٨٢): إسناده حسن صحيح.

النظر في هذا القيد، وهل يعتبر شرطاً ضرورياً بحيث لا يطلق على المعرفة وصف العلم حتى تكون مفيدة، أم أنه يمكن أن يسمى نوع ما من المعرفة علماً مع أنه ليس بمفيد لصاحبه أو لسائر الناس؟

والظاهر ـ فيما يبدو لي والله أعلم ـ أن مصطلح العلم في الكتاب والسُّنَّة إذا ورد مورد المدح والثناء فلا يصدق إلا على العلم النافع، أما إذا أطلق على سبيل العموم فيمكن حينئذ أن يطلق على كل أنواع المعرفة، بغض النظر عن انتفاع صاحبها، أو عدم انتفاعه.

ومما يدل على هذا المعنى من كتاب الله قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٧]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر: ٨٣]، وقوله تعالى عن نفر من أهل الكتاب: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة: ١٤٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله تعالى مخبراً عما ذكره قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾ [القصص: ٧٨]، وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

كذلك أخبر الله سبحانه عن قوم أوتوا علماً ولم ينفعهم

علمهم، فهذا علم نافع في نفسه لكن صاحبه لم ينتفع به[١]، قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾ [الجمعة: ٥] وقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]، وقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف: ١٦٩].

ففي هذه الآيات المتقدمة نجد أن هؤلاء النفر قد حصلوا نوعاً من العلم أي معرفة مطابقة للواقع في مجال من المجالات الدينية أو الدنيوية، لكنهم لم ينتفعوا بهذا العلم نفعاً يقربهم من الله، أو يزيدهم خشية وخشوعاً وامتثالاً للأوامر.

وأما نصوص السُّنَّة، فمن أوضح أدلتها في هذا الصدد قوله ﷺ: «**اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من علم لا ينفع**»[٢]، فمع عدم نفع هذا العلم لصاحبه، واستعاذة المصطفى ﷺ منه، إلا أنه أطلق عليه وصف العلم، وحينما ذكر ﷺ أول ثلاثة تسعر بهم النار عد منهم رجلاً «**تعلَّم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأتي به**

(١) ابن رجب: فضل علم السلف على علم الخلف ص٢٠.
(٢) رواه مسلم (٢٧٢٢).

فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها، قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار»(١).

كذلك صح عنه ﷺ أنه قال: «**من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله ﷻ لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة؛ يعني: ريحها**»(٢)، وقال ﷺ: «**من طلب العلم ليجاري به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار**»(٣).

وكل ذلك يؤكد على التلازم الوثيق بين العلم الممدوح وبين تحقق النفع منه، ومن ثم لا نجد في الإسلام ما يعرف بفكرة العلم للعلم أو السعي لطب المعرفة وتحصيله وكأنها عملية تخزين شيء من الأشياء في العقل(٤)، وإنما العلم النافع ما كان حجة للإنسان لا عليه(٥)، ودافعاً له كي يعمل ويعلم، ويمتد خيره للآخرين، ومثل هذا النوع هو الجدير بأن يغبط ويحسد الحسد الجائز، كما في الحديث: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي**

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٥).

(٢) رواه أبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٥٩).

(٣) رواه الترمذي (٢٦٥٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٨٣).

(٤) انظر: د. سعيد إسماعيل علي: السُّنَّة رؤية تربوية ص٢٣٤.

(٥) وفي الحديث: «والقرآن حجة لك أو عليك» رواه مسلم (٢٢٣).

اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»[١].

أما مجرد القراءة والمعرفة دون نفع فقد تكون وبالاً على صاحبها، ومن صفات الخوارج أنهم «يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم»[٢] ومن أخوف ما خاف الرسول على الأمة منه «منافق عليم اللسان»[٣]، كما ضرب الله لنا مثلاً في القرآن بمن آتاه الله آياته فانسلخ منها، قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن مفهوم العلم وغاياته في الإسلام يباين مفهومه وغاياته لدى كثير من المدارس الفلسفية قديماً وحديثاً، فشرط العلم في الإسلام أن يكون نافعاً للإنسان في ذاته وفي مجتمعه وفي الدنيا والآخرة، بينما ذهب بعض الفلاسفة الغربيين كسقراط وأفلاطون قديما، ومالبرانش وسبينوزا وبوانكاريه فيما بعد إلى القول بأن قيمة العلم لا تكمن في فائدته بقدر كمونها في قيمته في ذاتها[٤].

(١) رواه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٥).
(٢) رواه البخاري (٣٦١٠) ومسلم (١٠٦٤)
(٣) رواه ابن حبان (٨٠) من حديث عمران بن حصين، وجاء عند أحمد (١٤٤، ٣١٢)، وقوى إسناده شعيب الأرنؤوط في التعليق على المسند.
(٤) انظر: د. صلاح رسلان: العلم في منظوره الإسلامي، ص٢٩.

وهكذا يمكننا أن نقسم العلم إلى ثلاثة أقسام[(١)]:

الأول: علم صحيح في ذاته وانتفع به صاحبه، وهو العلم الممدوح في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وقد أخبر ﷺ أن هذا العلم قد يرفع وإن بقي مع الناس علم غير نافع، فعن جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ قَالَ: حَدَّثَنِي عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيُّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ يَوْماً، فَقَالَ: «**هَذَا أَوَانُ يُرْفَعُ الْعِلْمُ**»، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ لَبِيدُ بْنُ زِيَادٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، يُرْفَعُ الْعِلْمُ، وَقَدْ أُثْبِتَ وَوَعَتْهُ الْقُلُوبُ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنْ كُنْتُ لَأَحْسَبُكَ مِنْ أَفْقَهِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ**»، ثُمَّ ذَكَرَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى عَلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ كِتَابِ اللهِ، قَالَ: فَلَقِيتُ شَدَّادَ بْنَ أَوْسٍ، فَحَدَّثْتُهُ بِحَدِيثِ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ، فَقَالَ: «**صَدَقَ عَوْفٌ، أَلَا أَدُلُّكَ بِأَوَّلِ ذَلِكَ؟ يُرْفَعُ الْخُشُوعُ، حَتَّى لَا تَرَى خَاشِعاً**»[(٢)].

والثاني: علم صحيح في نفسه، لكن صاحبه لم ينتفع به فكان وبالاً وحجة عليه لا له، والذم هنا ليس متوجها للعلم في نفسه، وإنما لصاحبه الذي لم ينتفع به، وهذا العلم هو الذي استعاذ منه ﷺ فقال: «**اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من علم لا ينفع**»[(٣)].

---

(١) ابن رجب: فضل علم السلف على علم الخلف، ص...

(٢) رواه ابن حبان (٦٧٢٠)، وصححه الألباني في اقتضاء العلم العمل (٨٩).

(٣) رواه مسلم (٢٧٢٢).

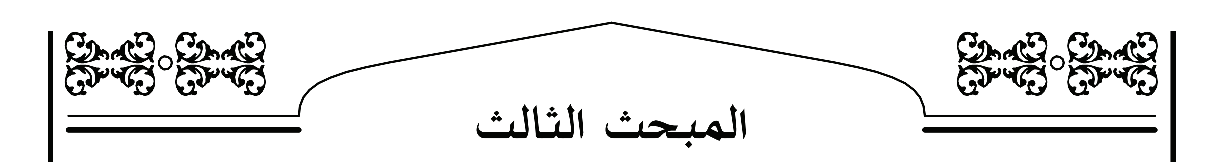
والثالث: علم باطل في نفسه كالسحر والكهانة والنجوم، وهو لا بد أن يضر صاحبه ولا ينفعه قط، كما قال تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٣] وتسميته علماً باعتباره نوعاً من المعرفة التي تكتسب وتتعلم وإن كانت باطلة في نفسها وغير نافعة، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً مِنَ النُّجُومِ تَعَلَّمَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ**»(١).

وليس المقصود بعلم النجوم هنا: علم الفلك المعروف والمبني على المشاهدة والتجربة، وإنما المقصود بعلم النجوم المنهي عنه: ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي لم تقع وستقع في مستقبل الزمان، والزعم بأن للنجوم والكواكب تأثيراً في السفليات، وأنها تتصرف على أحكامها وتجري على قضايا موجباتها، وهذا منهم تحكم على الغيب، وتعاط لعلم استأثر الله سبحانه به لا يعلم الغيب أحد سواه(٢).



(١) رواه أبو داود (٣٩٠٥)، وابن ماجه (٣٧٢٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٧٤).

(٢) انظر: الخطابي: معالم السنن ٤/٢٢٩، ٢٢٣٠، والعظيم آبادي: عون المعبود ٤/٢٢، وانظر تفصيلاً مهمّاً للكلام عن التنجيم ومفهومه، والفرق بينه وبين علوم الفلك عبد المجيد المشعبي: التنجيم والمنجمون وحكمهم في الإسلام، ص١٦٠، ٣٠٣.



المبحث الثالث

ترسيخ مجموعة من القواعد المنهجية الضابطة لطرق تحصيل العلم والمعرفة

ويعد هذا الجانب من أبرز الجوانب التي لها صلة بموضوع بحثنا، نظراً لما لهذه القواعد من دور مهم وجوهري في غرس النزعة العلمية، وتخريج شخصية ذات سمات منهجية واضحة في كيفية تلقي العلوم والمعارف والتعامل معها.

وقد تنوعت مجالات هذه القواعد تنوعاً كبيراً، فمنها ما يتعلق بمصادر المعرفة ووسائلها، ومنها ما يتعلق بكيفية تحصيلها أو اكتسابها، ومنها ما يتعلق بالعلم كقيمة كبرى ينبغي إشاعتها بين سائر طبقات المجتمع المسلم رجالاً ونساءً وكباراً وصغار، بل إن هذا الاهتمام بالعلم قد امتد إلى طائفة العبيد والموالي، أيام كان لهم وجود في المجتمع المسلم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه القواعد تعتبر نتاجاً إسلامياً خالصاً مستقى من المصادر الإسلامية الأصيلة، ويخلو تماماً من أي شبهة تأثر بالوافد الأجنبي، حيث لم يكن قد حدث الاحتكاك بالفكر الوافد، كما لا يمكن الزعم بأنها مما عرفه العرب قبل الإسلام، إذ لم تكن البيئة العربية حينذاك مما

ينطبق عليه وصف العلمية بحال، ويكفي أن نشير إلى أن عدد من كان يحسن الكتابة في قريش، وهي من أكبر قبائل العرب وأرقاها: سبعة عشر رجلاً[١].

وسوف نحاول فيما يلي أن نستخلص عدداً من هذه القواعد المنهجية، والتي كان لها أثر كبير في تكوين العقلية العلمية المسلمة، وضبط نظرتها، وطريقة تعاملها مع سائر العلوم والمعارف، ومن أبرز هذه القواعد ما يلي:

١ ـ ذم القول بغير علم، وعدم قبول أي دعوى بلا برهان معتبر يشهد لها ويدل على صحتها وصدقها، وما لم يوجد مثل هذا البرهان فالدعوى ساقطة لا قيمة لها، وكذلك ذم من يعولون على الظنون والأوهام.

ولا يخفى مدى الأثر الكبير لمثل هذه القاعدة، وما يترتب على شيوعها في البيئة المسلمة من تعويد لكافة أفراد المجتمع على الإعلاء من قيمة الدليل والبرهان، وعدم قبول أي قول بدون مستند.

ويزداد الأمر وضوحاً إذا قارنًّا ذلك بالبيئة الجاهلية التي نزل فيها القرآن أول مرة، وهي بيئة شاعت فيها الأساطير والخرافات، والتصديق بكل ما يقال، والعكوف على أقوال الآباء والأجداد، وتقليدهم تقليداً أعمى، والسير على منوالهم في كل صغيرة وكبيرة.

(١) انظر: البلاذري: فتوح البلدان ص٦٦٠، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع.

وقد دل على هذه القاعدة الكثير من نصوص القرآن والسُّنَّة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: ١١١]، وقوله تعالى: ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾﴾ [الاحقاف: ٤]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقوله تعالى: ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ [الكهف: ١٥].

كذلك ذم الله كل من تكلم، أو حاجج، أو جادل بغير علم، وإنما بالهوى والظنون، فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [آل عمران: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الحج: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم: ٢٨].

وأما أحاديث السُّنَّة الدالة على هذا المعنى فهي كثيرة، وسوف نجتزئ ببعضها، ومن ذلك قول النبي ﷺ: «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث**»[١]، وقال ﷺ: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا**»[٢]، وقال ﷺ: «**من أفتي بغير علم كان إثمه على من أفتاه**»[٣]، وقال ﷺ: «**من أفتى بغير علم كان إثمه على من أفتاه، ومن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره فقد خانه**»[٤].

وليس تحريم القول بغير علم مقصوراً على الأمور الشرعية من حلال أو حرام فحسب، بل هو عام في كل الأمور، ويدل على ذلك قول النبي ﷺ: «**من تطبب ولا يعلم منه طب فهو ضامن**»[٥].

وقد اقتدى الصحابة ﵃ بنبيِّهم ﷺ في التحذير من اتباع الظنون والقول بلا علم أو برهان، فعن عقبة بن عامر ﵁ أنه

---

(١) رواه البخاري (٥١٤٤)، ومسلم (٢٥٦٣).

(٢) رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

(٣) رواه أبو داود (٣٦٥٧)، وابن ماجه (٥٣)، والدارمي (١٥٩)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود.

(٤) رواه أبو داود (٣٦٥٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١١٠١٣).

(٥) رواه أبو داود (٤٥٨٦)، والنسائي (٤٨٣٠)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٣٥).

قال: «**تَعَلَّمُوا قَبْلَ الظَّانِّينَ يَعْنِي الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ بِالظَّنِّ**»[(١)].

وفي هذا الأثر «إشعار بأن أهل ذلك العصر كانوا يقفون عند النصوص ولا يتجاوزونها، وإن نقل عن بعضهم الفتوى بالرأي فهو قليل بالنسبة، وفيه إنذار بوقوع ما حصل من كثرة القائلين بالرأي، وقيل: مراده قبل اندراس العلم وحدوث من يتكلم بمقتضى ظنه غير مستند إلى علم»[(٢)].

٢ ـ حرص الرسول ﷺ على الربط بين كلامه، وبين ما يدل عليه من آيات القرآن الكريم، مع أن كلامه ﷺ وحي، وكاف في الحجة والبرهان:

وفي هذا المسلك تعويد للصحابة والأمة كلها على ربط الأحكام بأدلتها وعدم إرسال القول على عواهنه، وثمة عدد من النماذج الدالة على هذا الأمر، ومنها قول النبي ﷺ: «**قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقرؤوا إن شئتم** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]»[(٣)].

وقال النبي ﷺ: «**ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم** ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾

---

(١) رواه البخاري معلقاً في أول كتاب الفرائض، باب تعليم الفرائض، وانظر: فتح الباري ١٢/٦.

(٢) ابن حجر: فتح الباري: ١٢/٦.

(٣) رواه البخاري (٤٧٧٩)، ومسلم (٢٨٢٤).

[الأحزاب: ٦]»[١]، وقال ﷺ: «**ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية**: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزخرف: ٥٨][٢].

وحينما ذكر الرسول ﷺ لأصحابه الكلام عن اقتناء الخيل وأقسام الناس في ذلك فقال: «**الْخَيْلُ لِثَلَاثَةٍ لِرَجُلٍ أَجْرٌ وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ**»، سئل ﷺ عَنِ الْحُمُرِ فَقَالَ: مَا أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهَا إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْجَامِعَةُ الْفَاذَّةُ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة ٧: ٨][٣].

٣ ـ الاعتداد بسائر المصادر المعرفية المعتبرة ـ بشرط توافقها مع طبيعة موضوعها ـ وعدم حصر الوسائل المفضية لتحصيل المعرفة في مصدر بعينه، ورفض ما سواه، ومراعاة المداخل المعرفية المختلفة في الكيان الإنساني.

فالإسلام يعتد بالعقل ويحترمه أبلغ الاحترام ـ طالما أنه وظف في مجاله الصحيح ـ بل يجعله شرطاً أساسياً للتكليف، بحيث ينعدم التكليف بفقده أو إصابته بخلل أو علة قادحة، وقد أخبر النبي ﷺ أنه «**رفع القلم عن ثلاث: عن النائم حتى**

---

(١) رواه البخاري (٢٣٩٩).

(٢) رواه الترمذي (٣٢٥٣)، وابن ماجه (٤٨)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٣٢٥٣).

(٣) رواه البخاري (٢٣٧١)، ومسلم (٩٨٧).

يستيقظ، وعن الصغير حتى يكبر، وعن المجنون حتى يعقل أو يفيق»[(١)].

كذلك يعتد الإسلام بالتجربة في مجال الأمور الدنيوية المحسوسة، وفي قصة تأبير النخل قال ﷺ لأصحابه: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**»[(٢)].

ومن المصادر المعرفية الأخرى التي اعتد بها الإسلام ـ بضوابط وقيود ـ كلّاً من الإلهام، والرؤى، والأمور الوجدانية، نظرا لأنها تعد من قبيل المعرفة الخاصة، والقاصرة على بعض المكلفين دون بعض.

ومن الأدلة على ذلك قوله ﷺ: «**لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون، فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر**»[(٣)]، وقال ﷺ لوابصة: «**استفت نفسك، البر ما اطمأن إليه القلب، واطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك**»[(٤)]، وقال ﷺ: «**الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة**»[(٥)].

---

(١) رواه النسائي (٣٤٣٢)، والترمذي (١٤٢٣)، وابن ماجه (١٦٧٣)، وصححه الألباني في صحيح النسائي.
(٢) رواه مسلم (٢٣٦٣).
(٣) رواه البخاري (٣٦٨٩)، ومسلم (٢٣٩٨).
(٤) رواه أحمد (١٧٥٤٠، ١٧٥٤٥)، والدارمي (٢٥٣٣)، وحسنه الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب (١٧٣٤).
(٥) رواه البخاري (٦٩٨٩)، ومسلم (٢٢٦٥).

ومع اعتداد الإسلام بسائر المصادر المعرفية المذكورة، فإنه يقر بوجود تفاوت واضح في درجاتها ومراتبها، ومجال عمل كل واحد منها، وعلى سبيل المثال فإن إدراك الشيء عن طريق المشاهدة المحسوسة أبلغ وأكثر يقينية من مجرد معرفته عن طريق الخبر والسماع، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «**ليس الخبر كالمعاينة**»[1].

وفي قصة موسى عليه السلام نلحظ أنه لم يلق الألواح إلا عندما رأي بعينه ما فعله قومه من عبادة العجل الذي صنعه لهم السامري، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ﴾ [لأعراف: ١٥٠]

٤ ـ ومن القواعد الأخرى المتعلقة بهذا الباب التنبيه إلى **نسبية المعرفة البشرية** مهما بلغت من تقدم أو رقي، لا سيما إذا ما قورنت بعلم الله الشامل والمحيط، الذي ليس مسبوقاً بجهل أو ملحوقاً بنسيان أو وهم.

ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: ٧٦].

وفي قصة الخضر مع موسى عليه السلام، قال الخضر لموسى:

---

(١) رواه أحمد (١٨٤٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٧٣).

«يَا مُوسَى، إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لَا أَعْلَمُهُ..... فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ الْخَضِرُ: يَا مُوسَى، مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ»[(١)].

٥ ـ ذم الطنطنة اللفظية الفارغة التي تزيف الحقائق، وتصرف الأنظار عنها:

ومن المعروف أن النهضة العلمية الحقيقية لا يمكن أن تتم مع وجود هذه الظاهرة التي تستهلك النشاط العلمي، وتجعله يدور في حلقة مفرغة لا يقدم فيها جديداً، وإنما يعيد إنتاج ما هو موجود ومعروف.

وحينما شاعت هذه النزعة في العصور المتأخرة أثرت على الحياة العلمية فصارت في كثير من جوانبها «رتيبة غير متنوعة، جامدة غير متحركة، مقلدة غير مبتكرة، لفظية غير موضوعية، تكاد تدور حول نفسها، تلخص الأفكار العلمية في متون، ثم توضحها في شروح، وقد تفسر الشروح في حواشٍ وتقارير وكل ذلك أخذ عن السابقين؛ لأنه ما ترك الأول للآخر شيئاً»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٢) د. إبراهيم مدكور: تاريخ الفلسفة ضمن الفكر الفلسفي في مائة عام، ص٣٦٤، أشرف على إخراجه هيئة الدراسات العربية في الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٦٢م.

ومن نصوص السُّنَّة التي وردت في ذم هذه الظاهرة وأصحابها: قول النبي ﷺ: «**إن الله يبغض البليغ من الرجال، الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بألسنتها**»(١)، وقال ﷺ أيضاً: «**إن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون، والمتشدقون، والمتفيهقون**»(٢).

وثبت عنه ﷺ أنه قضى في امرأتين من هذيل اقتتلتا فرمت إحداهما الأخرى بحجر، فأصاب بطنها وهي حامل، فقتلت ولدها الذي في بطنها، فاختصموا إلى النبي ﷺ، فقضى أن دية ما في بطنها غرة: عبد أو أمة، فقال ولي المرأة التي غرمت: «كَيْفَ أَغْرَمُ يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ لَا شَرِبَ وَلَا أَكَلَ، وَلَا نَطَقَ وَلَا اسْتَهَلَّ، فَمِثْلُ ذَلِكَ يُطَلّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخْوَانِ الْكُهَّانِ**»(٣).

٦ ـ الدقة في استخدام المصطلحات، وإعادة تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة:

ولا يخفى مدى أهمية هذا الأمر في ضبط الحركة العلمية، وترسيخ معايير دقيقة في تناول القضايا والمسائل المختلف حولها، ولا شك أن تحرير معنى الألفاظ وضبطها

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٠٥)، والترمذي (٢٨٥٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٧٥).

(٢) رواه أحمد (١٧٢٧٨)، والترمذي (٢٠١٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٥٣٥).

(٣) رواه البخاري (٥٧٥٨)، ومسلم (١٦٨١).

أمر مهم جدّاً، ووسيلة لا بد منها في ضبط عملية الفهم والتواصل، وثمة اتجاهات علمية كاملة في العصر الحديثة حصرت مجمل اهتمامها في قضية تحليل ألفاظ التخاطب، وضبطها ضبطاً صارماً.

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إن كثيراً من أوجه الخلاف الناشئ بين الفرق والمذاهب سببه استخدام ألفاظ مجملة، ومعانٍ مشتبهة، لا يحدد فيها طرفا النزاع محل اختلافهما تحديداً وافياً بالمراد، يعرف به كلٌّ منهما قوله وقول خصمه، ثم ينافح عنه بعد ذلك ما وسعه الجهد، حتى ربما تخاصم اثنان على إطلاق ألفاظ ونفيها، ولو سئل أحدهما عن معنى ما قاله لم يتصوره فضلاً عن أن يعرف دليله(١).

وكما يقول ابن حزم فإن «الأصل في كل بلاء وعماء، وتخليط وفساد: اختلاط أسماء، ووقوع اسم واحد على معانٍ كثيرة، فيخبر المخبِر بذلك الاسم، وهو يريد أحد المعاني التي تحته، فيجعله السامع على غير ذلك المعنى الذي أراد المخبِر، فيقع البلاء والإشكال، وهذا في الشريعة أضر شيء وأشده هلاكاً»(٢).

وقد تعددت نصوص القرآن والسُّنَّة التي تبين خطورة التكلم بما لم يتثبت الإنسان منه، أو إطلاق القول على عواهنه

(١) انظر: ابن تيمية: مجموع الفتاوى ١٢/ ١١٤.
(٢) ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام ٨/ ٥٦٤.

دون تبصر للعواقب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [قٓ: ١٨]، وقال النبي ﷺ: «**كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع**»[١]، وقال ﷺ أيضاً: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً، يرفعه الله بها درجات وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم»[٢].

وقال ﷺ لمعاذ لما سأله: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «**ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**»[٣].

كذلك حرص الرسول ﷺ أن يصحح لصحابته بعض المفاهيم غير الصحيحة، وأن يعيد تعريف عدد من الألفاظ والمصطلحات الشائعة لديهم بمفهوم جديد، يتوافق مع الشرع ومقاصده.

ومن نماذج ذلك قوله ﷺ: «**ليس الشديد بالصُرَعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»[٤]، وفي رواية أخرى أكثر تفصيلاً قال ﷺ: «**ما تعدون الرقوب فيكم؟** قال: قلنا: الذي لا يولد له قال: «**ليس ذاك بالرقوب، ولكنه الرجل الذي**

(١) رواه مسلم (٥)، وأبو داود (٤٩٩٢).

(٢) رواه البخاري (٦٤٧٨).

(٣) رواه أحمد (٢١٥١١)، والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

(٤) رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

لم يقدم من ولده شيئاً»، قال: **فما تعدون الصرعة فيكم؟** قال: قلنا: الذي لا يصرعه الرجال، قال: **ليس بذلك ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب»**(١).

ومما يدخل تحت هذا الباب قوله ﷺ: «**أتدرون ما المفلس؟** قالوا: المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع، قال ﷺ: **المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاته وصيامه وزكاته ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا وضرب هذا، فيقعد فيقتص هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقتص ما عليه من الخطايا، أخذ من خطاياهم فطرح عليه ثم طرح في النار»**(٢).

ويمكن أن ندرج في هذا الباب أيضاً عدداً كبيراً من نصوص القرآن والسُّنَّة التي نهت المسلمين عن ترديد بعض الألفاظ والمصطلحات التي يرددها غير المسلمين، وتنطوي على مخالفات شرعية، إما في لفظها أو معناها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤﴾ [البقرة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا

(١) رواه مسلم (٢٦٠٨).
(٢) رواه مسلم (٢٥٨١).

بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ [النساء: ٤٦].

أما نصوص السُّنَّة فقد حفلت بعشرات النماذج من هذا القبيل، ويضيق بنا المجال عن حصرها[(١)]، ومن ذلك قوله ﷺ: «**لا تغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم، ألا إنها العشاء، وهم يعتمون بالإبل**»[(٢)]، وقال ﷺ: «**لا تسموا العنب الكرم، فإن الكرم الرجل المسلم**»[(٣)]، كذلك قال ﷺ: «**لا يقولن أحدكم خبثت نفسي، ولكن ليقل لقست نفسي**»[(٤)]، وقال ﷺ: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ**»[(٥)].

وقال ﷺ: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُم عَبْدِي وَأَمَتِي، كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللهِ، وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللهِ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: غُلَامِي، وَجَارِيَتِي، وَفَتَايَ، وَفَتَاتِي**»[(٦)]، وقال ﷺ: «**لَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»[(٧)]، وقال ﷺ:

---

(١) وانظر نماذج كثيرة في هذا الباب عند: ابن القيم: زاد المعاد ٢/ ٣٢٠ ـ ٣٣١، وكذا كتاب د. بكر بن عبد الله أبي زيد: معجم المناهي اللفظية، دار العاصمة الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

(٢) رواه البخاري (٥٦٣)، ومسلم (٦٤٤).

(٣) رواه مسلم (٢٢٤٧).

(٤) رواه البخاري (٦١٧٩)، ومسلم (٢٢٥٠).

(٥) رواه البخاري (٦١٨٢)، ومسلم (٢٢٤٦).

(٦) رواه البخاري (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩).

(٧) رواه أحمد (٢١٠٢٥) (٢٠٦٩٤)، وابن ماجه (٢١١٨).

«لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمُ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ فَإِنَّهُ لَا مُكْرِهَ لَهُ»[١].

٧ ـ عدم الاقتصار على ظواهر الأشياء وعوارضها، والعناية التامة بالفهم لحقائقها، والتأكيد على أن العبرة بالكيف والحقيقة، وليس بالكم والمظهر[٢]:

وقد جاءت النصوص الشرعية مؤكدة على هذا المعنى، حيث قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٧]، وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ۝١٧﴾ [الرعد: ١٧]، وقال ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[٣].

كذلك حذر النبي ﷺ من الاغترار بالظواهر، وبناء الأحكام عليها، فقال: «**رُبَّ أشعث، مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره**»[٤]، كما علم أصحابه عملياً كيف تكون نظرتهم وأحكامهم على الناس، ففي «صحيح البخاري» عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: مر رجل على رسول الله ﷺ فقال:

---

(١) رواه البخاري (٦٣٣٨)، ومسلم (٢٦٧٨).

(٢) انظر: د.عبد الحميد الصيد الزنتاني: أسس التربية الإسلامية في السُّنَّة النبوية، ص٥٣٣، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م.

(٣) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٤) رواه مسلم (٢٦٢٢).

«**ما تقولون في هذا؟** قالوا: حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، وإن قال أن يستمع، قال: ثم سكت فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: **ما تقولون في هذا؟** قالوا: حري إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يستمع، فقال رسول الله ﷺ: **هذا خير من ملء الأرض مثل هذا**»[1].

ويضاف لذلك كله النصوص الشرعية، التي تمدح التفهم والتدبر لآيات الله وأحكامه، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ﴾ [النساء: ٨٣]، ودعاء النبي ﷺ لابن عباس بقوله: «**اللَّهُمَّ فقِّهه في الدين**»[2].

٨ ـ التأكيد على فكرة السنن الربانية وثباتها:

وقد تعددت النصوص الشرعية من الكتاب والسُّنَّة التي تؤكد على ثبات السنن الإلٰهية في الكون والمجتمع، مما يستلزم ضرورة فهمها وحسن التعامل معها، لا سيما وأن هذه السنن تتسم بالعموم، وتحكم على الناس جميعاً، فلا تحابي أحداً،

---

(١) رواه البخاري (٥٠٩١).

(٢) رواه البخاري (١٤٣)، ومسلم (٢٤٧٧).

كما تتسم بالثبات والدوام، فلا تتغير ولا تتبدل[(١)].

وفي القرآن الكريم إشارات عديدة إلى فكرة السنن واطرادها وقد وردت بأكثر من أسلوب[(٢)]، فتارة تذكر نصاً، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝١٣٧﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وتارة تذكر مضافة إلى الله تباركت وتقدست أسماؤه، كما في قوله تعالى: ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ۝٨٥﴾ [غافر: ٨٥].

وتارة تذكر مضافة إلى الأمم والأقوام، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥﴾ [الكهف: ٥٥]، وفي بعض الأحيان لا تذكر نصّاً وإنما تفهم من دلالة النص، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝١٠﴾ [الأنعام: ١٠].

كما نبَّه جل ثناؤه إلى أن هذه السنن صارمة، تتسم بالاطراد والشمول والثبات، فقال سبحانه: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا

---

(١) انظر: د. عبد الكريم زيدان: السنن الإلٰهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، ص١٦، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م، ود. يوسف القرضاوي: العقل والعلم، ص٢٧٩.

(٢) انظر: محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة: (سنن)، ود. محمد آمحزون: الإعجاز السنني في القرآن الكريم.

سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: ٤٣]، وقوله عزّ من قائل: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء: ٧٧].

أما نصوص السُّنَّة في هذا الباب فهي أيضاً كثيرة ومتنوعة، فمنها ما يذكر السنن نصاً كقوله ﷺ: «**لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه،** قلنا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: **فمن؟**»[(١)].

ولما فتح رسول الله ﷺ مكة، خرج قبل هوزان، فمر هو والصحابة على سدرة للكفار يعكفون حولها، ويدعونها ذات أنواط، فقال بعض من معه: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط فقال ﷺ: « **الله أكبر! إنها السنن! هذا كما قالت بنو اسرائيل لموسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، قال: إنكم قوم تجهلون**»، **ثم قال رسول الله ﷺ**: «**إنكم لتركبن سنن من قبلكم**»[(٢)].

ومن المواقف التربوية العظيمة التي علم فيها النبي ﷺ أمته رعاية سنن الله في الكون، واحترام ما بثه الله فيه من أسباب ومسببات، والتحذير من الربط الخاطئ بين ظواهر لا

(١) رواه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

(٢) رواه الترمذي (٢١٨٠)، وابن حبان (٦٧٠٢)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

رابط بينها سوى التوهم أو الغلو في البشر وإن علا قدرهم: ما حدث يوم وفاته ابنه إبراهيم حيث كسفت الشمس، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله يريهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة وادعوا الله**»(١)، وفي رواية عند مسلم قال ﷺ: «**إن هذه الآيات التي يرسل الله لا تكون لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله يرسلها يخوف بها عباده، فإذا رأيتم منها شيئاً فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره**»(٢).

وهناك سنن ربانية كثيرة تكررت الإشارة إليها في السُّنَّة النبوية، ويطول بنا المقام إذا رمنا تتبعها تفصيلاً، ومن ثم نكتفي فقط إلى الإشارة إلى بعض نماذجها، ومن ذلك أن ترك الأمة للجهاد وركونها للدنيا وحبها وكراهية الموت: سبب في تسلط الذل عليها، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلاًّ لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ**»(٣).

---

(١) رواه البخاري (١٠٤٣، ١٠٥٨).

(٢) رواه مسلم (٩١٢).

(٣) رواه أحمد (٥١٠٢)، وأبو داود (٣٤٦٢)، وسكت عنه وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

وعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا**»، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ، قَالَ: «**بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ**»، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْوَهْنَ؟ قَالَ: «**حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**»(١).

وثمة ارتباط وثيق بين شيوع المعاصي والمخالفات وترك العمل بأوامر الله في المجتمعات المسلمة، وبين العقوبات المتنوعة التي تحل بتلك المجتمعات، فعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرَؤُونَ هَذِهِ الْآيَةَ وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَا وَضَعَهَا اللهُ**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْۚ﴾ إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ، يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ»(٢).

وعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي**

(١) رواه أحمد (٢٢٨٣٢)، وأبو داود (٤٢٩٧)، وسكت عنه وصححه الألباني في صحيح أبي داود.
(٢) رواه أحمد (١)، وأبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا. وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَؤُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ. وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا. وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ. وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ، إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»[١].

ومن السنن التي كثر ذكرها في الأحاديث النبوية كثرة لافتة للنظر: سُنَّة «الجزاء من جنس العمل» سواء تعلق ذلك بالمعاملة مع الرب ﷻ، أو بالمعاملة مع الخلق.

ومن أحاديث السُّنَّة الدالة على تلك السُّنَّة الربانية[٢] في جانب الترغيب: قول النبي ﷺ: **«من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة»**[٣]، وقوله ﷺ: **«مَنْ بَنَى مَسْجِداً يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ، بَنَى اللهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ»**[٤]،

(١) رواه ابن ماجه (٤٠١٩)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه.

(٢) انظر الكثير من النماذج الدالة على تلك السُّنَّة عند: سعيد بن صالح الغامدي: الجزاء بالمثل على الأفعال الإنسانية في ضوء السُّنَّة النبوية، ص٨ ـ ٤٧، وكتاب د. سيد حسن العفاني: الجزاء من جنس العمل، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

(٣) رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٦٤)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد في المسند (٢١٧٦٣)، وأصله في مسلم (٢٦٩٩).

(٤) رواه البخاري (٤٥٠)، ومسلم (٥٣٣).

وقوله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْراً»[1]، وقوله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»[2].

ومن الأحاديث الدالة على تلك السُّنَّة في جانب الترهيب قول النبي ﷺ: «مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ فِي الدُّنْيَا، أَلْبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ مَذَلَّةٍ فِي الْآخِرَةِ»[3]، وقال ﷺ: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ»[4]، وقال ﷺ: «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِداً مُخَلَّداً فِيهَا أَبَداً، وَمَنْ تَحَسَّى سُمّاً فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مُخَلَّداً فِيهَا أَبَداً، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مُخَلَّداً فِيهَا أَبَداً»[5]، وقال ﷺ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ»[6]، وقال ﷺ: «مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ

---

(١) رواه مسلم (٤٠٨).
(٢) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).
(٣) رواه أبو داود (٤٠٢٩)، والنسائي في الكبرى (٩٤٨٧)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود.
(٤) رواه البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٦).
(٥) رواه البخاري (٥٧٧٨).
(٦) رواه مسلم (١٩٧٨).

الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ»[١]، وقال ﷺ: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا، حُرِمَهَا فِي الْآخِرَةِ»[٢].

٩ ـ الأمر بالتفكر والتدبر في آيات الله المتلوة وآيات الله المنظورة:

والآيات القرآنية في هذا المعنى كثيرة جدّاً، منها ما يتعلق بالتدبر في آيات الله المتلوة كقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾.

ومن الآيات ما يتعلق بالتفكر والنظر في آيات الله الكونية المنظورة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

أما السُّنَّة فمن أحاديثها قول النبي ﷺ: «**تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا**»[٣]. وعن عائشة أن

(١) رواه الترمذي (٢٠٣٢)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي.
(٢) رواه البخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣).
(٣) رواه أبو الشيخ (١)، والطبراني في الأوسط (٦٣١٩)، وابن عدي (٨/ ٣٨٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٧٥).

النبي ﷺ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟، قَالَ: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا** ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ [آل عمران: ١٩٠]» الْآيَةَ كُلَّهَا[١].

١٠ ـ الفصل بين كل من عالم الغيب وعالم الشهادة، واختلاف المنهج في التعامل مع كلٍّ منهما:

ولا يخفى أهمية ترسيخ هذه القاعدة المنهجية في تقدم مسيرة العلم، لا سيما أنه قد حدثت أضرار لا تحصى بسبب خلط كثير من الناس بين هذين المجالين، وعدم التفرقة بينهما، ومن الطبيعي أن الانشغال بما لا يجدي ولا طائل من ورائه سوف يؤثر، ولا بد من الانشغال بالنافع والمفيد.

وإذا كان العقل مسموحاً له أن يصول ويجول ويخترع ويبتكر في عالم الشهادة بمحسوساته وتجريبياته، فإن الأمر ليس كذلك بحال في عالم الغيب، الذي لا يمكن للعقل أن يظفر فيه بطائل إذا استقل عن هداية الوحي، ومن ثم كان منعه من الخوض في هذا الباب صيانة له وتوفيراً لطاقاته أن تهدر عبثاً،

(١) رواه ابن حبان (٦٢٠).

أو أن تنفق في ميدان خارج حدود إدراكه، ولو تركت العقول وعلومها التي تستفيدها بمجرد النظر لم يكن بإمكانها قط معرفة الله معرفة مفصلة بصفاته وأسمائه على وجهه اليقين[(١)]، ولولا «الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد، فمن أعظم نعم الله على عباده وأشرف منة عليهم أن أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبين لهم الصراط المستقيم، ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم، بل أشر حالاً منها»[(٢)].

وقد ورد في نصوص السُّنَّة ما يدل على الفصل بين عالمي الغيب والشهادة، واختلاف طريقة التعامل ومنهجيته في كل واحد منهما، والنهي الصريح عن خوض العقل فيما لا يصح له الخوض فيه.

ومن المجالات التي نهي العقل عن الخوض فيها ما يتعلق بكيفية ذات الله سبحانه وصفاته، وقد قال ﷺ: «**تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا**»[(٣)]، ويدخل في ذلك أيضاً أمور الغيبيات التي لا تعلم إلا بالنص كالروح وتفاصيل أمور الآخرة ووقت قيام الساعة التي لا يعلمها إلا الله القائل سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

---

(١) الصارم المسلول لابن تيمية ٢/ ٤٥٩.
(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٩/ ١٠٠.
(٣) رواه أبو الشيخ (١)، والطبراني في الأوسط (٦٣١٩)، وابن عدي (٨/ ٣٨٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٧٥).

ولما سأل جبريل الرسول ﷺ عن وقت قيام الساعة قال: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»(١)، كذلك أخبر ﷺ عن مفاتيح الغيب الخمس التي لا يعلمها إلا الله فقال: «**مِفْتَاحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ: لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا يَكُونُ فِي غَدٍ، وَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا يَكُونُ فِي الْأَرْحَامِ، وَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَمَا يَدْرِي أَحَدٌ مَتَى يَجِيءُ الْمَطَرُ**»(٢).

ومن المجالات التي لا مدخل للعقل فيها: الوقوف على معرفة سر القدر، والمعرفة بتفاصيل الحكمة منه في كل الأمور، إذ إن «أصل القدر سر الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان ودرجة الطغيان»(٣).

ولما خرج النبي ﷺ على أصحابه ذات يوم، وهم يتنازعون في القدر، فَكَأَنَّمَا تَفَقَّأَ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ مِنَ الْغَضَبِ فَقَالَ لَهُمْ: «**مَا لَكُمْ تَضْرِبُونَ كِتَابَ اللهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ؟ بِهَذَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**»(٤).

وفي أخبار الأمم الماضية علمنا النبي ﷺ أن نتوقف عن

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٨).
(٢) رواه البخاري (١٠٣٩).
(٣) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ١/ ٣٢٠.
(٤) رواه أحمد (٦٧٧٩)، وابن ماجه (٨٥)، وصحح أحمد شاكر إسناده.

الجزم بحكم إلا إن وصلنا أثارة من علم، حيث لم يجزم ﷺ ـ وهو الذي يوحى إليه من ربه ـ بنبوة تبع وذي القرنين، فقال: «**مَا أَدْرِي تُبَّعٌ أَنَبِيّاً كَانَ أَمْ لَا؟ وَمَا أَدْرِي ذَا الْقَرْنَيْنِ أَنَبِيّاً كَانَ أَمْ لَا؟**»[(١)]، وفي رواية أخرى قال ﷺ: «**مَا أَدْرِي أَتُبَّعٌ لَعِينٌ هُوَ أَمْ لَا، وَمَا أَدْرِي أَعُزَيْرٌ نَبِيٌّ هُوَ أَمْ لَا**»[(٢)].

أما أمور الدنيا فهي ميدان رحيب فسيح لعمل العقل، وقد ثبت عنه ﷺ في قصة تأبير النخل المعروفة أنه قال: «**إذا كان شيء من أمر دنياكم فأنتم أعلم به، فإذا كان من أمر دينكم فإلي**»[(٣)]

١١ ـ ترسيخ علاقة مليئة بالمودة والحب، والانسجام والتكامل مع الكون كله:

فالإسلام في تصوره للعلاقة بين الإنسان والكون كله ينشيء مفهوماً قائماً على الوئام والانسجام، والتكامل والوفاق، بين الإنسان وسائر ما خلقه الله في الكون، وبين الجماعة المؤمنة والعالم، فما دام ما في الكون قد سخر لعون المكلف على عبادة الله وإعمار الأرض، فإن العلاقة بينه وبين الإنسان ليست بالضرورة علاقة قتال وغزو وبغضاء، إنما علاقة انسجام

(١) رواه الحاكم في المستدرك (١٠٥)، قال الذهبي في تلخيصه (١٠٤) على شرطهما ولا أعلم له علة.
(٢) رواه أبو داود (٤٦٧٤) وسكت عنه، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.
(٣) رواه ابن ماجه (٢٤٧١)، وأصل الحديث عند مسلم (٢٣٦٣).

وتكامل، وكشف وتنقيب[(١)].

وتختلف هذه العلاقة اختلافاً واضحاً عن تلك النظرة الغربية التي تهدف لقهر الطبيعة، وتخشى غضبها، وتصور العلاقة معها على أنها سلسلة من الصراع الدائم والمستمر، بينما الكون في تصور المسلم مطيع لله، ومسبح وساجد له، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝١٥﴾ [الرعد: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۝١٨﴾ [الحج: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وفي السُّنَّة النبوية نماذج عديدة تشهد لتلك النظرة، ومن ذلك قول النبي ﷺ عن جبل أُحد: «**هذا أحد، جبل يحبنا ونحبه**»[(٢)] مع أن الهزيمة حصلت عنده، وكان من الممكن أن يتولد في نفوس بعض الصحابة شيء من التشاؤم أو الكراهية تجاهه.

كذلك صح عنه ﷺ أنه «كان يسير في طريق مكة، فمر على جبل يقال له: جمدان، فقال: **سيروا هذا جمدان، سبق**

(١) د. عماد الدين خليل: العقل المسلم والرؤية الحضارية، ص٣٠.

(٢) رواه البخاري (٢٨٨٩)، ومسلم (١٣٩٢).

المفردون، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال **الذاكرون الله كثيراً والذاكرات**»(١)، وقال ﷺ: «**سيحان، وجيحان، والفرات، والنيل كل من أنهار الجنة**»(٢)، وقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَراً بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ**»(٣).

١٢ ـ الربط الوثيق بين العلم والعمل، وذم المراء والمجادلة بالباطل، والنظر المجرد الذي لا يترتب عليه عمل، أو الخوض فيما لا يجدي:

فالعلم في الإسلام لا يراد به المعرفة النظرية المجردة، أو الترف المعرفي الذي لا يترتب عليه عمل، وإنما المقصود من العلم هو العمل، وكل علم لم يثمر عملاً فلا خير فيه، وهو حجة على صاحبه في الآخرة.

وقد تعددت نصوص القرآن والسُّنَّة في ذم من لا يعمل بعلمه، أو لم يوافق سلوكه قوله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٢، ٣]

(١) رواه مسلم (٢٦٧٦).
(٢) رواه مسلم (٢٨٣٩).
(٣) رواه مسلم (٢٢٧٧).

كذلك ضرب الله مثلاً لمن أوتي العلم ثم انسلخ منه، وأعرض عن الانتفاع به، فقال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

وكان النبي ﷺ يستعيذ بالله من علم لا ينفع فيقول: «**اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها**»[١]، كما كان يخاف على الأمة من كل منافق عليم اللسان[٢]، وأخبر ﷺ أن كل أحد سوف يسئل عما علم، فقال: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة، حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه**»[٣].

ومن الوعيد الشديد، الذي ورد في حق من يعظ الناس، ويحضهم على الخير، ثم ينسى نفسه، ويخالف فعله قوله ﷺ:

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).
(٢) رواه أحمد (١٤٤، ٣١٢)، وقوى إسناده شعيب الأرنؤوط في التعليق على المسند.
(٣) رواه الترمذي (٢٤١٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٣٠٠).

«يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف، وتنهانا عن المنكر، قال كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»(١).

وقال ﷺ أيضاً: **«مررت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، قال: قلت: من هؤلاء؟ قالوا: خطباء من أهل الدنيا كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون»**(٢).

وأما ذم الجدل والمراء الذي لا نفع فيه ولا طائل من ورائه، فقد تعددت نصوص القرآن والسُّنَّة في هذا المعنى ومنها: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزخرف: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [الحج: ٣] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [غافر: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا

---

(١) رواه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٢) رواه أحمد (١١٨٠١)، وصحح إسناده شعيب الأرنؤوط في التعليق على المسند.

هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ [غافر: ٥٦].

ومن نصوص السُّنَّة في هذا المعنى قول النبي ﷺ: «**أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**»[(١)]، وقال ﷺ: «**أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً**»[(٢)]، وقال ﷺ: «**ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**»[(٣)]. وعن عَائِشَةَ، قَالَتْ: تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧]، فَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ، إِذَا رَأَيْتُمْ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيهِ، فَهُمْ الَّذِينَ عَنَاهُمْ اللهُ، فَاحْذَرُوهُمْ**»[(٤)].

وليس الجدال مذموماً كله، وإنما يذم إذا كان مبنيّاً على أدلة فاسدة، أو قصد به نصرة الباطل، أو أدى إلى الشقاق وفساد ذات البين، أما الجدال بالتي هي أحسن لنصرة الحق فلا شيء فيه، وقد قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ﴾

(١) رواه البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٠٠)، والبيهقي ١٠/ ٢٤٩، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود.

(٣) رواه الترمذي (٣٢٥٣)، وابن ماجه (٤٨)، وأحمد (٢١٢٦٠)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي.

(٤) رواه بهذا اللفظ ابن ماجه (٤٧)، وأصل الحديث عند البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥).

[النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ [المجادلة: ١]، وفي القرآن الكريم نماذج عدة من جدال الأنبياء لأقوامهم، وإقامة الحج عليهم، حتى إن قوم نوح عليه السلام قالوا له: ﴿يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: ٣٢].

وقد ذكر الخطيب البغدادي أنه «ما أنكر أحد من الصحابة قط الجدال في طلب الحق، وأما التابعون ومن بعدهم فتوسعوا في ذلك، فثبت أن الجدال المحمود هو طلب الحق ونصره، وإظهار الباطل وبيان فساده، وأن الخصام بالباطل هو اللدد، الذي قال النبي ﷺ: **أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**»[1].

ومما له صلة وثيقة بهذه القاعدة، أن نشير إلى منهج القرآن والسُّنَّة في التعامل مع أسئلة السائلين، وتوجيهها إلى الوجهة الصحيحة النافعة، ولعل بوسع المتأمل لهذا المنهج أن يخرج بعدد من الحقائق، يأتي في مقدمتها ذم السؤال إذا لم تدع إليه حاجة، أو تترتب عليها فائدة، وقد قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١﴾ [المائدة: ١٠١].

وقال النبي ﷺ: «**دعوني ما تركتكم، إنما هلك من كان**

(١) الخطيب البغدادي: الفقيه والمتفقه ١/ ٥٦٠.

قبلكم بسؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[١]، وقال ﷺ: «**إن الله كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال**»[٢].

كذلك أخبر النبي ﷺ أن «**أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته**»[٣]، وقال ﷺ: «**الحلال ما أحل الله في كتابه، والحرام ما حرم الله في كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه**»[٤].

أما السؤال النافع المفيد فلا حرج منه، وقد ورد في القرآن إجابات عن عدد كبير من التساؤلات مثل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٣].

وإذا سأل بعض السائلين عن شيء ما لا فائدة من ورائه، تأتي الإجابة لتوجه مسار السؤال إلى جانب آخر نافع ومفيد في المعاش والمعاد، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] وحينما جاء

(١) رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).
(٢) رواه البخاري (١٤٧٧)، ومسلم (١٧١٥).
(٣) رواه البخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨).
(٤) رواه الترمذي (١٧٢٦)، وابن ماجه (٣٣٦٧)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه.

رجل إلى النبي ﷺ وسأله متى الساعة قال له: «**ماذا أعددت لها**»[١]، وسأله آخر عن الساعة فقال: «**إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**. قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: **إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**»[٢].

كذلك كان ﷺ يجيب السؤال أحياناً بأكثر مما سأل عنه، مراعاة لحاله وتعميماً للفائدة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا نَرْكَبُ الْبَحْرَ، وَنَحْمِلُ مَعَنَا الْقَلِيلَ مِنَ الْمَاءِ، فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا، أَفَنَتَوَضَّأُ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ**»[٣].

وربما سأل بعض الصحابة عما يجوز له في عبادة ما فيوجه ﷺ الجواب إلى التعريف بما لا يجوز، ليجتنبه المكلف، ثم يترك له باب المباح واسعاً بعد ذلك، فعن ابن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا يَلْبَسُ الْمُحْرِمُ مِنَ الثِّيَابِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَلْبَسُ الْقُمُصَ، وَلَا الْعَمَائِمَ، وَلَا السَّرَاوِيلَاتِ، وَلَا الْبَرَانِسَ، وَلَا الْخِفَافَ، إِلَّا أَحَدٌ لَا يَجِدُ نَعْلَيْنِ، فَلْيَلْبَسْ خُفَّيْنِ، وَلْيَقْطَعْهُمَا أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ، وَلَا**

(١) رواه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).

(٢) رواه البخاري (٥٩).

(٣) رواه أبو داود (٨٣)، والترمذي (٦٩)، والنسائي (٥٩)، وابن ماجه (٣٨٦)، وصححه الألباني.

تَلْبَسُوا مِنَ الثِّيَابِ شَيْئاً مَسَّهُ الزَّعْفَرَانُ، أَوْ وَرْسٌ»[(١)].

وقد ذكر العلماء فوائد عدة من هذا الجواب النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام، ومن ذلك قول النووي: «قال العلماء: هذا الجواب من بديع الكلام وجزله؛ لأن ما لا يلبس منحصر، فحصل التصريح به، وأما الملبوس الجائز فغير منحصر، فقال: لا يلبس كذا؛ أي ويلبس ما سواه، انتهى. وقال البيضاوي: سئل عما يلبس فأجاب بما لا يلبس ليدل بالالتزام من طريق المفهوم على ما يجوز، وإنما عدل عن الجواب لأنه أخصر وأحصر، وفيه إشارة إلى أن حق السؤال أن يكون عما لا يلبس لأنه الحكم العارض في الإحرام المحتاج لبيانه، إذ الجواز ثابت بالأصل معلوم بالاستصحاب، فكان الأليق السؤال عما لا يلبس، وقال غيره: هذا يشبه أسلوب الحكيم، ويقرب منه قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ﴾ الآية، فعدل عن جنس المنفق، وهو المسئول عنه إلى ذكر المنفق عليه؛ لأنه أهم. وقال ابن دقيق العيد: يستفاد منه أن المعتبر في الجواب ما يحصل منه المقصود كيف كان، ولو بتغيير أو زيادة، ولا تشترط المطابقة»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري (١٣٤)، ومسلم (١١٧٧).

(٢) ابن حجر: فتح الباري ٣/ ٤٧٠.

١٣ ـ إزالة كل ما يحول دون تحصيل المعرفة العلمية الصحيحة:

ومن المعروف أنه لا يكفي لغرس المنهجية العلمية التأكيد على أهمية طلب العلم وتحصيل الأدلة والبراهين، بل لا بد أن يقترن مع ذلك إزالة كل ما يحول دون تحصيل المعرفة العلمية الصحيحة، مثل التبعية للسادة والكبراء، والظن، واتباع الأهواء، وما أشبه ذلك.

وقد تعددت نصوص القرآن والسُّنَّة في التأكيد على هذا الأمر، حيث ذم الله سبحانه تقليد الآباء والأجداد، دون برهان أو حجة، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة: ١٠٤]

كذلك ذم سبحانه اتباع الهوى فقال تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ

يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون: ٧١].

ومن نصوص السُّنَّة الدالة على هذا المعنى قوله ﷺ في التحذير من الهوى والسير وراءه دون وعي أو إدراك: «**ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه**»[(١)]، وقال ﷺ أيضاً: «**حبك للشيء يعمي ويصم**»[(٢)].

وفي التحذير من الانسياق وراء الجموع، وتقليد الآخرين دون دليل أو برهان، ورد حديث في إسناده كلام، وإن كانت نصوص الشريعة ومقاصدها العامة تشهد لصحة معناه، وهو ما روي عنه ﷺ أنه قال: «**لا تكونوا إمَّعة**[(٣)] **تقولون إن أحسن**

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٠٢).

(٢) رواه أحمد (٢١١٨٦)، وأبو داود (٥١٣٠)، وقد ضعف الرواية المرفوعة جماعة من أهل العلم، ورجحوا وقف الحديث، فانظر عون المعبود ١٤/ ٢٧، والسلسلة الضعيفة للشيخ الألباني (١٨٦٨)، وتعليق شعيب الأرنؤؤط على المسند.

(٣) ومعنى الإمعة والإمع بكسر الهمزة وتشديد الميم: هو الذي لا رأي له ولا عزم فهو يتابع كل أحد على رأيه، ولا يثبت على شيء، والهاء فيه للمبالغة، انظر: تحفة الأحوي ٦/ ١٢٣، ومعجم مقاييس اللغة ١/ ١٣٩، ولسان العرب ٨/ ٣.

الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم: إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا»[١].

١٤ ـ ويتصل بالقاعدة السابقة الحملة الشديدة على الأوهام والخرافات، أيّاً كان نوعها أو مصدرها. ويدخل في ذلك تعليق التمائم، والودع، والأحجبة التي يظن الإنسان أنها تجلب له الخير، أو تدفع عنه الشر، حيث قال النبي ﷺ: «**من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له**»[٢]. وعن عقبة ابن عامر الجهني أن رسول الله ﷺ أقبل إليه رهط، فبايع تسعة وأمسك عن واحد، فقالوا: يا رسول الله بايعت تسعة وتركت هذا؟ قال: «**إن عليه تميمة**، فأدخل يده فقطعها، فبايعه وقال: **من علق تميمة فقد أشرك**»[٣].

وأما إتيان السحرة، أو العرافين والكهان، فيعد من أكبر الكبائر، بل ربما بلغ مرتبة الكفر، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ

(١) رواه الترمذي (٢٠٠٧)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٢٧١).
(٢) رواه أحمد (١٦٩٥١)، وحسنه شعيب الأرنؤوط في التعليق على المسند.
(٣) رواه أحمد (١٦٩٦٩)، وصححه الألباني صحيح الجامع (٦٣٩٤).

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقال رسول ﷺ: «**من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**»(١)، وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس منا من تطير أو تطير له، أو تكهن أو تكهن له، أو سحر أو سحر له، ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**»(٢).

ومما له صلة بهذا الباب أيضاً الاعتقاد في تأثير النجوم على أقدار العباد، وإمكان معرفة المغيبات عن طريقها، وقد قال ﷺ: «**من اقتبس علماً من النجوم؛ اقتبس شعبة من السحر**»(٣)، كذلك أغلق ﷺ كل باب للخرافات التي كانت تشيع عند العرب، كالتطير، ووجود كائنات خرافية، فقال ﷺ: «**لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر**»(٤)

١٥ ـ تقرير قاعدة حل كل شيء من الأمور الدنيوية النافعة إلا ما حرمه الدليل:

وتعرف هذه القاعدة بأن «الأصل في الأشياء الإباحة»

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣٠).

(٢) رواه الطبراني وانظر: مجمع الزوائد للهيثمي ٥/١١٧، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢١٩٥).

(٣) رواه أبو داود (٣٩٠٥)، وابن ماجه (٣٧٢٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٧٤).

(٤) رواه البخاري (٥٧٥٧)، ومسلم (٢٢٢٠).

وهي تفتح المجال واسعاً للابتكار والاختراع في أمور الدنيا وفي المجال التجريبي إلا إذا ورد دليل يمنع ذلك، حيث يقصد بها أن الأصل في تصرفات الإنسان وأفعاله التي هيأه الله تعالى للقيام بها وأحوجه إليها أنها مباحة له وهو حر فيها، كما أن الحدود والقيود التي توضع على تصرفات الناس شيء طارئ، ولا تكون إلا بسبب ودليل، ويبقى ما سوى ذلك على أصل الإباحة والجواز وحرية الفعل.

قال ابن تيمية: «والمقصود أنه ليس لأحد أن يحرم إلا ما جاءت الشريعة بتحريمه، وإلا فالأصل عدم التحريم، سواء في ذلك الأعيان والأفعال. وليس له أن يشرع ديناً واجباً أو مستحبّاً ما لم يقم دليل شرعي على وجوبه واستحبابه»(١)، وهكذا فإن منع الناس من تصرفاتهم وتحريمها، أو تضييقها وتقييدها، أو الحكم ببطلانها، لا يُقبل إلا بدليل معتبر(٢).

وقد دل على هذه القاعدة نصوص عدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومنها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ

---

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٢٠/ ٣٥٨.

(٢) انظر: معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية ٣/ ١٦٨.

مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ فَجَعَلَ سبحانه الْأَصْلَ الْإِبَاحَةَ، وَالتَّحْرِيمَ مُسْتَثْنًى[١].

وأما نصوص السُّنَّة فمنها قول النبي ﷺ: «**الْحَلَالُ مَا أَحَلَّهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ، وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ مِمَّا عَفَا عَنْهُ**»[٢]، كذلك نهى الرسول ﷺ أن يسأل أحد عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته، فقال: «**إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْماً، مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ، فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ**»[٣].

١٦ ـ لفت الأنظار إلى أهمية القرائن والاعتماد عليها في بناء الأحكام:

والقرائن جمع قرينة، وقد عرفها بعضهم بأنها «أمر يشير إلى المطلوب»[٤] أو هي «ما يدل على المراد من غير كونه صريحاً»[٥].

وفي القرآن الكريم إشارة إلى العمل بالقرائن، ومن ذلك ما في قصة يوسف عليه السلام حيث قال تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ

---

(١) انظر الشوكاني: إرشاد الفحول ٢/ ٢٨٤.

(٢) رواه الترمذي (١٧٢٦)، وابن ماجه (٣٣٦٧) وقال الترمذي: غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه.

(٣) رواه البخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨).

(٤) الجرجاني: التعريفات، ص١٧٤.

(٥) الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٣/ ١٥٦.

بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨]. ووجه الدلالة من الآية ـ كما ذكر القرطبي ـ أنهم لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة صدقهم، قرن الله بهذه العلامة علامة تعارضها، وهي سلامة القميص من التمزيق، إذ لا يمكن افتراس الذئب ليوسف وهو لابس القميص ويسلم القميص، وأجمعوا على أن يعقوب عليه السلام استدل على كذبهم بصحة القميص، فاستدل العلماء بهذه الآية على إعمال الأمارات في مسائل كثيرة من الفقه[1]، كما استدلوا بقوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يوسف: ٢٦، ٢٧] على جواز إثبات الحكم بالعلامة، إذ أثبتوا بذلك كذب امرأة العزيز فيما نسبته ليوسف عليه الصلاة والسلام[2].

كذلك في السُّنَّة النبوية إشارات مماثلة[3] منها ما رواه الشيخان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**كَانَتِ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا، جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ لِصَاحِبَتِهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، وَقَالَتِ الْأُخْرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ** عليه السلام **فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ** عليهما السلام **فَأَخْبَرَتَاهُ، فَقَالَ: ائْتُونِي**

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٩/ ١٤٩.
(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٣/ ١٥٦، ١٥٧.
(٣) انظر: د. عبد الله محمد حسن: القرائن وأثرها في علم الحديث، ص١٥.

بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَهُمَا، فَقَالَتِ الصُّغْرَى: لَا تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ اللهُ هُوَ ابْنُهَا، فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى»[١].

ووجه القرينة في هذا الحديث ـ كما ذكر ابن القيم ـ أن سليمان عليه السلام استدل برضا الكبرى بذلك، وأنها قصدت الاسترواح إلى التأسي بمساواة الصغرى في فقد ولدها، وبشفقة الصغرى عليه، وامتناعها من الرضا بذلك: على أنها هي أمه، وأن الحامل لها على الامتناع هو ما قام بقلبها من الرحمة والشفقة التي وضعها الله تعالى في قلب الأم، وقويت هذه القرينة عنده، حتى قدمها على إقرارها، فإنه حكم به لها مع قولها: «هو ابنها»[٢].

ومن أدلة السُّنَّة أيضاً قول النبي ﷺ: «**الْأَيِّمُ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا مِنْ وَلِيِّهَا، وَالْبِكْرُ تُسْتَأْذَنُ فِي نَفْسِهَا، وَإِذْنُهَا صُمَاتُهَا**»[٣]، وفي هذا الحديث جعل النبي ﷺ صمات البكر قرينة دالة على الرضا، وتجوز الشهادة عليها بأنها رضيت، وهذا من أقوى الأدلة على الحكم بالقرائن[٤].

وقد استنبط العلماء من تلك الأدلة مشروعية العمل بالقرائن، ووجدت أمثلة عديدة لذلك عند الفقهاء والأصوليين

---

(١) رواه البخاري (٣٤٢٧)، ومسلم (١٧٢٠).
(٢) ابن القيم: الطرق الحكمية، ص٥.
(٣) رواه مسلم (١٤٢١).
(٤) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٣/ ١٥٧.

وعلماء الحديث[١]، ويهمنا هنا على وجه الخصوص أن نشير إلى تلك القرائن التي يمكن من خلالها الحكم بالوضع على المرويات، والتي تظهر التميز المنهجي الفذ لدى علماء الحديث، وتوظيف مختلف الأدوات بغية تنقية سُنَّة الرسول ﷺ من أي شائبة تشوبها، وقد ذكر ابن الصلاح أنه «يعرف كون الحديث موضوعاً بإقرار واضعه، أو ما يتنزل منزلة إقراره، وقد يفهمون الوضع من قرينة حال الراوي أو المروي، فقد وضعت أحاديث طويلة يشهد بوضعها ركاكة ألفاظها ومعانيها»[٢].

ومن القرائن المتصلة بالمروي والتي يعرف بها وضع الحديث[٣]: اشتماله على مجازفات باردة لا يمكن أن يقول مثلها رسول الله ﷺ، أو أن يكون الحديث مما يكذبه الحس، أو حقائق التاريخ الثابتة أو بدهيات العقل، ومنها سماجة الحديث، وكونه مما يسخر منه، وركاكة ألفاظه، بحيث يمجها السمع، ويدفعها الطبع ويسمج معناها للفطن ومن أمثلة ذلك الحديث المكذوب: «لو كان الأرز رجلاً لكان حليماً»، وحديث: «لا تسبوا الديك؛ فإنه صديقي».

---

(١) انظر نماذج عديدة لذلك عند: د. عبد الله محمد حسن: القرائن وأثرها في علم الحديث، ص٥٥.

(٢) مقدمة ابن الصلاح، ص٩٩.

(٣) انظر تلك القرائن عند ابن القيم: المنار المنيف، ص٥٠، ود. عمر فلاتة: الوضع في الحديث ١/ ٣٠٠، ود. مبارك الدعيلج: الوضع في الحديث، ص٢٤٥، وجمال بن محمد السيد: ابن قيم الجوزية وجهوده في خدمة السُّنَّة النبوية وعلومها، ص٤٦٠

ومن القرائن أيضاً مخالفة الحديث لصريح القرآن، أو السُّنَّة مناقضة بينة مع عدم إمكان الجمع بينهما، وكما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فكل حديث يشتمل على فساد، أو ظلم، أو عبث، أو مدح باطل، أو ذم حق، أو نحو ذلك: فرسول الله ﷺ منه بريء»[(١)].

١٧ ـ تأسيس منهجية التثبت من المرويات، وأثرها في نشأة العناية بالأسانيد عند المسلمين:

والتثبت عموماً من الأمور المطلوبة في التعامل مع الأخبار المنقولة، وكذا مع كل كلام أو موقف يصدر من المكلف، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور: ١٥، ١٦]. كذلك حذر النبي ﷺ من إطلاق الكلام على عواهنه دون تثبت، فقال ﷺ: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ والمَغْرِبِ**»[(٢)].

وفي باب الأخبار على وجه الخصوص أمرنا الله تعالى بالتبين والتثبت إن جاءنا خبر من فاسق، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ

---

(١) ؟؟؟

(٢) رواه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨).

فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ [الحجرات: ٦]، وقال النبي ﷺ: «بئس مطية الرجل زعموا»(١).

وفي السُّنَّة النبوية نماذج عملية كثيرة(٢) لتثبت النبي ﷺ من شيء بلغه عن بعض أصحابه، ومن ذلك ما رواه مسلم عن جابر بن عبد اللهِ قَالَ: خَلَتِ الْبِقَاعُ حَوْلَ الْمَسْجِدِ، فَأَرَادَ بَنُو سَلِمَةَ أَنْ يَنْتَقِلُوا إِلَى قُرْبِ الْمَسْجِدِ. فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ لَهُمْ: «**إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ!** قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ أَرَدْنَا ذَلِكَ. فَقَالَ: **يَا بَنِي سَلِمَةَ، دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ، دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ**»(٣).

وعن عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: أُخْبِرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُ يَقُولُ: لَأَقُومَنَّ اللَّيْلَ، وَلَأَصُومَنَّ النَّهَارَ مَا عِشْتُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**آنْتَ الَّذِي تَقُولُ ذَلِكَ؟** فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ قُلْتُهُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَنَمْ وَقُمْ، وَصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَإِنَّ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَذَلِكَ مِثْلُ صِيَامِ الدَّهْرِ**»(٤).

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ: «**أَحَقٌّ**

---

(١) رواه أحمد (١٦٦٢٧)، وأبو داود (٤٩٧٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٦٦).
(٢) انظر: د. يحيى زمزمي: الحوار آدابه وضوابطه، ص٣٤٦.
(٣) رواه مسلم (٦٦٥).
(٤) رواه البخاري (٣٤١٨)، ومسلم (١١٥٩).

مَا بَلَغَنِي عَنْكَ؟ قَالَ: وَمَا بَلَغَكَ عَنِّي؟ قَالَ: **بَلَغَنِي أَنَّكَ وَقَعْتَ بِجَارِيَةِ آلِ فُلَانٍ**. قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: **فَشَهِدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ**»[(١)].

وقد سار الصحابة رضوان الله عليهم على هذا المنهج النبوي القويم، فنقل عنهم وقائع عدة حرصوا فيها على التثبت من المرويات، ومراجعة رواتها، ليس تكذيباً لهم، وإنما لمزيد من الاستيثاق، أو تعليماً للأمة من بعدهم، وقد حدث شيء من هذا القبيل في عهد النبي ﷺ، حيث كان الصحابي تبلغه رواية ما عن الرسول ﷺ فيذهب ليسأله عنها.

ومن نماذج ذلك[(٢)] أن علياً «قَدِمَ مِنَ الْيَمَنِ بِبُدْنِ النَّبِيِّ ﷺ فَوَجَدَ فَاطِمَةَ رضي الله عنها مِمَّنْ حَلَّ، وَلَبِسَتْ ثِيَاباً صَبِيغاً، وَاكْتَحَلَتْ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ: إِنَّ أَبِي أَمَرَنِي بِهَذَا، قَالَ: فَكَانَ عَلِيٌّ يَقُولُ بِالْعِرَاقِ: فَذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مُحَرِّشاً عَلَى فَاطِمَةَ لِلَّذِي صَنَعَتْ، مُسْتَفْتِياً لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِيمَا ذَكَرَتْ عَنْهُ، فَأَخْبَرْتُهُ أَنِّي أَنْكَرْتُ ذَلِكَ عَلَيْهَا، فَقَالَ: **صَدَقَتْ صَدَقَتْ**»[(٣)].

وعن عمر رضي الله عنه قال: كُنْتُ أَنَا وَجَارٌ لِي مِنَ الْأَنْصَارِ فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ، وَهِيَ مِنْ عَوَالِي الْمَدِينَةِ، وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ

---

(١) رواه مسلم (١٦٩٣).

(٢) انظر: د. محمد مصطفى الأعظمي: منهج النقد عند المحدثين نشأته وتاريخه، ص٧.

(٣) رواه مسلم (١٢١٨).

عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ يَنْزِلُ يَوْماً، وَأَنْزِلُ يَوْماً، فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ بِخَبَرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الْوَحْيِ وَغَيْرِهِ، وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، فَنَزَلَ صَاحِبِي الْأَنْصَارِيُّ يَوْمَ نَوْبَتِهِ، فَضَرَبَ بَابِي ضَرْباً شَدِيداً، فَقَالَ: أَثَمَّ هُوَ؟ فَفَزِعْتُ، فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ: قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ عَظِيمٌ، قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ، فَإِذَا هِيَ تَبْكِي، فَقُلْتُ: طَلَّقَكُنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَتْ: لَا أَدْرِي. ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْتُ وَأَنَا قَائِمٌ: أَطَلَّقْتَ نِسَاءَكَ؟ قَالَ: **لَا**. فَقُلْتُ: اللهُ أَكْبَرُ»(١)

وجاءت زينب امرأة ابن مسعود رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقالت: «يَا نَبِيَّ اللهِ، إِنَّكَ أَمَرْتَ الْيَوْمَ بِالصَّدَقَةِ، وَكَانَ عِنْدِي حُلِيٌّ لِي، فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِهِ، فَزَعَمَ ابْنُ مَسْعُودٍ: أَنَّهُ وَوَلَدَهُ أَحَقُّ مَنْ تَصَدَّقْتُ بِهِ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **صَدَقَ ابْنُ مَسْعُودٍ، زَوْجُكِ وَوَلَدُكِ أَحَقُّ مَنْ تَصَدَّقْتِ بِهِ عَلَيْهِمْ**»(٢).

وبعد وفاته ﷺ استمر هذا المنهج في التثبت والاستيثاق من المرويات لدى الصحابة(٣)، وكان للخلفاء الراشدين قصب السبق في هذا الباب، ويأتي في مقدمتهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه

(١) رواه البخاري (٨٩).

(٢) رواه البخاري (١٤٦٢).

(٣) انظر: د. محمد مصطفى الأعظمي: منهج النقد عند المحدثين نشأته وتاريخه، ص٥٠، ود. نور الدين عتر: منهج النقد في علوم الحديث، ص٥٣، ود. صلاح الدين الأدلبي: منهج نقد المتن عند علماء الحديث، ص٦٩، ود. عاصم القريوتي: وجوب التثبت في الرواية، ص٩.

وهو «أول من احتاط في قبول الأخبار»(١) كما ذكر الذهبي، وقال الحاكم معدداً جهود الخلفاء في هذا الباب: «وأول من وقى الكذب عن رسول الله ﷺ أبو بكر رضي الله عنه، لما جاءت الجدة تسأل ميراثها والقصة مشهورة، ثم عمر بن الخطاب رضي الله عنه حبس جماعة من الصحابة، وقال قد أكثرتم الحديث عن رسول الله ﷺ، ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثا نفعني الله بما شاء أن ينفعني وإذا حدثني غيره عنه استحلفته فإذا حلف لي صدقته»(٢).

ومما نقل عن أبي بكر رضي الله عنه أن جدة جاءت إليه، تَسْأَلُهُ مِيرَاثَهَا، فَقَالَ لَهَا أَبُو بَكْرٍ: مَا لَكِ فِي كِتَابِ اللهِ شَيْءٌ، وَمَا عَلِمْتُ لَكِ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ شَيْئاً، فَارْجِعِي حَتَّى أَسْأَلَ النَّاسَ، فَسَأَلَ النَّاسَ، فَقَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ: حَضَرْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَعْطَاهَا السُّدُسَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هَلْ مَعَكَ غَيْرُكَ؟ فَقَامَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ الْأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ مِثْلَ مَا قَالَ الْمُغِيرَةُ فَأَنْفَذَهُ لَهَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ(٣).

ولعمر رضي الله عنه تطبيقات كثيرة في هذا الباب منها أن أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ، جَاءَ يَسْتَأْذِنُ عليه، فَاسْتَأْذَنَ ثَلَاثاً، ثُمَّ رَجَعَ،

---

(١) الذهبي: تذكرة الحفاظ ١/ ٩.

(٢) الحاكم: المدخل إلى كتاب الإكليل، ص٧٠.

(٣) رواه مالك في الموطأ (١٨٧١)، وأبو داود (٢٨٩٤)، والترمذي (٢١٠٠)، وضعفه الألباني.

فَأَرْسَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي أَثَرِهِ، فَقَالَ: مَا لَكَ لَمْ تَدْخُلْ؟ فَقَالَ أَبُو مُوسَى: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**الِاسْتِئْذَانُ ثَلَاثٌ، فَإِنْ أُذِنَ لَكَ فَادْخُلْ، وَإِلَّا فَارْجِعْ**»، فَقَالَ عُمَرُ: وَمَنْ يَعْلَمُ هَذَا؟ لَئِنْ لَمْ تَأْتِنِي بِمَنْ يَعْلَمُ ذَلِكَ لَأَفْعَلَنَّ بِكَ كَذَا وَكَذَا، فَخَرَجَ أَبُو مُوسَى حَتَّى جَاءَ مَجْلِساً فِي الْمَسْجِدِ يُقَالُ لَهُ مَجْلِسُ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: إِنِّي أَخْبَرْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**الِاسْتِئْذَانُ ثَلَاثٌ، فَإِنْ أُذِنَ لَكَ فَادْخُلْ وَإِلَّا فَارْجِعْ**»، فَقَالَ: لَئِنْ لَمْ تَأْتِنِي بِمَنْ يَعْلَمُ هَذَا لَأَفْعَلَنَّ بِكَ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كَانَ سَمِعَ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْكُمْ فَلْيَقُمْ مَعِي، فَقَالُوا لِأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: قُمْ مَعَهُ، وَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ أَصْغَرَهُمْ، فَقَامَ مَعَهُ، فَأَخْبَرَ ذَلِكَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، فَقَالَ عُمَرُ لِأَبِي مُوسَى: أَمَا إِنِّي لَمْ أَتَّهِمْكَ، وَلَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَتَقَوَّلَ النَّاسُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ[١].

وعَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: كُنْتُ إِذَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَدِيثاً يَنْفَعُنِي اللهُ بِمَا شَاءَ أَنْ يَنْفَعَنِي، حَتَّى حَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ، وَكَانَ إِذَا حَدَّثَنِي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بَعْضُ أَصْحَابِهِ اسْتَحْلَفْتُهُ، فَإِنْ حَلَفَ، صَدَّقْتُهُ، وَإِنَّهُ حَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ ـ وَصَدَقَ أَبُو بَكْرٍ[٢].

وقد آتى هذا التوجيه القرآني والنبوي ـ بضرورة التثبت

(١) البخاري (٢٠٦٢)، ومسلم (٢١٥٣).

(٢) رواه أبو داود (١٥٢١)، والترمذي (٤٠٦)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

والتبين في نقل الأخبار ـ أعظم الأكل وأطيبه، حيث نشأت وتكاملت علوم الإسناد التي تفردت بها الأمة الإسلامية عن سائر الأمم، وبلغ الأمر إلى اعتبار الإسناد من الدين، وأنه لولاه لقال من شاء ما شاء دون زمام أو خطام.

وفي السُّنَّة النبوية إشارات مهمة لقضية السماع المتصل راوياً عن راو، وتبليغ الحديث كما سمعه كل راو دون زيادة أو نقصان، كما في قوله ﷺ: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثاً فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ**»(١) وقوله ﷺ: «**تَسْمَعُونَ وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ، وَيُسْمَعُ مِمَّنْ يَسْمَعُ مِنْكُمْ**»(٢).

ولأشهر طرق تلقي الحديث شواهد وأدلة من السُّنَّة «فأما السماع من الشيخ فالأصل فيه حديث ابن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «**تسمعون ويسمع منكم ويسمع من يسمع منكم**»، وقوله ﷺ: «**نَضَّرَ اللهُ امرءاً سمع مقالتي فحفظها ووعاها فأداها كما سمعها**». وأما العرض على الشيخ فالأصل فيه حديث ضمام بن ثعلبة رضي الله عنه الثابت في الصحيح أنه قال: سئل رسول الله ﷺ: «أمرك أن تصلي الصلوات الخمس قال: **نعم**» الحديث. فهذه قراءة عن النبي ﷺ ثم أخبر بذلك

(١) رواه الترمذي (٢٦٥٧)، وابن ماجه (٢٣٢)، وابن حبان (٦٦)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٢) رواه أبو داود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦)، وابن حبان (٦٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

ضمام قومه فأخذوا بما أدى لهم من ذلك. . . . وأما المناولة فالأصل فيها حديث النبي ﷺ في الصحيح حيث كتب لأمير السرية كتاباً، وقال له لا تقرأه حتى تبلغ مكان كذا وكذا، فلما بلغ ذلك المكان قرأه على الناس، وأخبرهم بأمر النبي ﷺ، فهذا النبي ﷺ قد ناول أمير السرية كتابه ولم يقرأه، ولا عرضه أمير السرية عليه، ثم إن الأمير قرأه على السرية فامتثلوا لما في الكتاب وأخذوا به، وبلغ ذلك النبي ﷺ فرضيه وأقر به وقامت بذلك الحجة»[١].

وثمة نقول عديدة عن الأئمة المتقدمين في تعظيم أمر الإسناد، وضرورة الاهتمام به كوسيلة أساسية في التأكد من صدق الأخبار وصحتها ومن ذلك[٢] قول ابن المبارك: «الإسناد من الدين، لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء»، وفي رواية عنه كما في مقدمة مسلم: «بيننا وبين القوم القوائم؛ يعني: الإسناد»، وعن الشافعي قال: «مثل الذي يطلب الحديث بلا إسناد كمثل حاطب ليل»، وعن الثوري قال: «الإسناد سلاح المؤمن، فإذا لم يكن معه سلاح فبأي شيء يقاتل؟».

وليس من المبالغة أو التعصب بحال أن نقول: إن الإسناد

(١) ابن مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ١/١٨، ١٩.
(٢) انظر: مقدمة صحيح مسلم، باب أن الإسناد من الدين، والخطيب البغدادي: شرف أصحاب الحديث، ص٣٩، والسخاوي: فتح المغيث ٣/ ٣٤٤.

خصيصة من خصائص الأمة الإسلامية، والتي فاقت بها الأمم الأخرى جميعاً، ولعل أدنى مقارنة بين طريقة نقل القرآن والسُّنَّة، وبين نقل الكتب المقدسة في سائر الأديان الأخرى أو كتب الفكر الإنساني الذائعة الصيت ـ تدل بوضوح على تلك الحقيقة[١].

وقد نبه على تلك الخصيصة جماعة من أهل العلم في عصور شتى[٢] ومن ذلك قول أبي حاتم الرازي: «لم يكن في أمة من الأمم منذ خلق الله آدم أمناء يحفظون آثار الرسل إلا في هذه الأمة»[٣]، وقال الخطيب البغدادي: «ليس في الأمم ممن ينقل عن نبيه أقواله وأفعاله على وجه يحصل به الثقة إلا نحن، فإنه يروي الحديث منا خالف عن سالف، وينظرون في ثقة الراوي إلى أن يصل الأمر إلى رسول الله، وسائر الأمم يروون ما يذكرونه عن صحيفة لا يدرى من كتبها، ولا يعرف من نقلها، وهذه المنحة العظيمة نفتقر إلى حفظها بدوام الدراسة، ليبقى المحفوظ»[٤]، وقال ابن العربي: «والله أكرم هذه الأمة بالإسناد، لم يعطه أحد غيرها»[٥].

(١) انظر في تفصيل ذلك: د. عزية علي طه: منهجية جمع السُّنَّة وجمع الأناجيل دراسة مقارنة.

(٢) انظر: ابن حزم: الفصل ٢/ ٦٨، وأحمد شاكر: الباعث الحثيث، ص٤٤٣.

(٣) الخطيب البغدادي: شرف أصحاب الحديث ٤٢، وانظر السخاوي: فتح المغيث ٣/ ٣٤٥

(٤) الخطيب البغدادي: الحث على الحفظ وذكر كبار الحفاظ، ص٣١.

(٥) عبد الحي الكتاني: فهرس الفهارس والأثبات ١/ ٨٠.

وقد بلغ التثبت والإنصاف درجة لا مثيل لها، حيث لم يحاب المحدثون أباً ولا ابناً ولا أخاً، بل عدلوا وجرحوا بما رأوه حقّاً وعدلاً دون تحرج أو مجاملة «حتى إن ابن المديني سئل عن أبيه، فقال: سلوا عنه غيري، فأعادوا؛ فأطرق ثم رفع رأسه فقال: هو الدين، إنه ضعيف، وكان وكيع بن الجراح ـ لكون والده كان على بيت المال ـ يقرن معه آخر إذا روى عنه، وقال أبو داود صاحب السنن: ابني عبد الله كذاب... ونحوه قول الذهبي في ولده أبي هريرة: إنه حفظ القرآن ثم تشاغل عنه حتى نسيه، وقال زيد بن أبي أنيسة كما في مقدمة مسلم: لا تأخذوا عن أخي؛ يعني: يحيى المذكور بالكذب»[1].

ومما يجدر ذكره هنا أن ما يمكن تسميته بالنقد الداخلي، أو نقد المتن كان أول علوم الحديث وجوداً، وقد بدأ قبل الجرح والتعديل وظهور الإسناد، وتتجلى شواهده في المناقشات التي كانت تدور بين الصحابة رضوان الله عليهم، ولا سيما أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها[2]، وفي كتاب الزركشي: الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة[3] نماذج كثيرة من هذا القبيل.

---

(١) السخاوي: فتح المغيث ٣٥٦/٤، وانظر: د. عماد الدين الرشيد: نظرية نقد الرجال ومكانتها في ضوء البحث العلمي، ص٢٤١.

(٢) انظر: د. خلدون الأحدب: أثر الحديث في تشكيل العقل المسلم ص٥٦.

(٣) انظر الزركشي: الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة، تحقيق: =

ولعل في هذا ردّاً واضحاً على من زعم من المستشرقين، وبعض الدارسين المسلمين أن علم الحديث عني بنقد السند فحسب، ولم يعن بنقد المتن، وهي فرية غير صحيحة بالمرة، والواقع غير ذلك[1]، حيث راعى المحدثون الجانب العقلي في نقدهم للحديث بتوازن واعتدال دون شطط أو غلو، وكما أشار المعلمي اليماني، فقد راعى المحدثون العقل في قبول الحديث وتصحيحه «في أربعة مواطن: عند السماع، وعند التحديث، وعند الحكم على الرواة، وعند الحكم على الأحاديث، فالمتثبتون إذا سمعوا خبراً تمتنع صحته أو تبعد لم يكتبوه ولم يحفظوه، فإن حفظوه لم يحدثوا به، فإن ظهرت مصلحة لذكره ذكروه مع القدح فيه، وفي الراوي الذي عليه تبعته»[2].

١٨ ـ ترسيخ عادة الإتقان والإحسان لكل فعل:

ولا شك أن مثل هذه العادة تعد شرطاً أساسياً لا غنى

= د. رفعت فوزي عبد المطلب، مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

(١) وثمة دراسات كثيرة عرضت لهذا الأمر بالتفصيل، وانظر على سبيل المثال: د. معتز الخطيب: رد الحديث من جهة المتن دراسة في مناهج المحدثين والأصوليين، ص١٧، وكتاب د. صلاح الدين الأدلبي: منهج نقد المتن عند علماء الحديث، ود. محمد مصطفى الأعظمي: منهج النقد عند المحدثين، ص٨١، ود. خلدون الأحدب أثر الحديث في تشكيل العقل المسلم، ص٣٩، ود. أكرم ضياء العمري منهج النقد عند المحدثين مقارناً بالمنهج الغربي، ص٤٥.

(٢) المعلمي اليماني: الأنوار الكاشفة لما في كتاب «أضواء على السُّنَّة» من الزلل والتضليل والمجازفة، ص٦.

عنه في قيام الحضارات وتقدمها، وفي ازدهار مسيرة العلم والمعرفة، وقد تضافرت النصوص الشرعية في الدلالة على تحقق معنى الإتقان والإحسان في كل ما خلقه الله في كونه الفسيح، وفي أمر المسلمين بتلك الخصلة العظيمة.

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة: ٧]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾ [الملك: ٣].

وأما نصوص السُّنَّة فمنها قول النبي ﷺ: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**»[١]، وقوله ﷺ: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته**»[٢].

كذلك صح عنه ﷺ أنه قال: «**الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له**

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (٤٣٨٦)، والبيهقي في الشعب، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٨٨٠)، والسلسلة الصحيحة (١١١٣).
(٢) رواه مسلم (١٩٥٥).

أجران»[1]، وقال ﷺ: **«من أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد »**[2].

١٩ ـ التأكيد على الأهمية البالغة للوقت، والحرص عليه، وعدم تضييعه سدى:

ولا شك أن الوقت هو رأسمال العالم وطالب العلم، وبدون توافره وحسن توظيفه واستعماله لا يمكن أن تقوم حركة علمية بأي حال من الأحوال، ولا يمكن أن تؤلف كتب أو تعقد دروس، ويتخرج جيل من الدارسين.

وفي القرآن والسُّنَّة الكثير من النصوص المتعلقة بالوقت[3]، فقد امتن الله على عباده بنعمة الليل والنهار من حيث تسخيرهما، وجعلهما خلفة يخلف كل واحد منهما صاحبه لمن أراد تذكراً أو شكوراً، فقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾ [النحل: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ٦٢﴾ [الفرقان: ٦٢]، كما وبخ الله تعالى من أضاع

(١) رواه البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم (٧٩٨).

(٢) رواه أحمد (٢٦٧)، وابن ماجه (١٣٨)، وحسن الألباني إسناده في السلسلة الصحيحة (٥/ ٣٧٩).

(٣) انظر: عبد الفتاح أبو غدة: قيمة الزمن عند العلماء، ص٣٠، ود. يوسف القرضاوي: الوقت في حياة المسلم، ص٥، ود. خالد الجريسي: إدارة الوقت من المنظور الإسلامي والإداري، ص٢٥.

عمره فلم يتذكر ولم يتعظ، فقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧].

كذلك تعدد القسم بالوقت وأجزائه في مواطن كثيرة من القرآن الكريم ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ [العصر: ١، ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾ [الليل: ١، ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ [المدثر: ٣٣، ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ [التكوير: ١٧، ١٨]، وقوله: ﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾﴾ [الفجر: ١، ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾ [الضحى: ١، ٢]

أما في السُّنَّة النبوية، فقد بين النبي ﷺ أن أكثر الناس مغبونون في حفظ نعمة الوقت واستعماله على الوجه الأمثل، فقال ﷺ: «**نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة والفراغ**»(١).

كذلك بيَّن النبي ﷺ أن المرء سوف يسأل يوم القيامة عن عمره وشبابه فيما أفناه وأبلاه، فقال ﷺ: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع خصال: عن عُمُره فيمَ أفناه، وعن شبابه فيمَ أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ**

(١) رواه البخاري (٦٤١٢).

أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه»[(١)].

ويضاف لذلك أن العبادات في الإسلام مرتبطة بأوقات معينة، لا يصح أن تؤدى إلا في وقتها، ولا يجوز تقديمها أو تأخيرها إلا في أحوال استثنائية قليلة، وقد سئل النبي ﷺ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ فقَالَ: «**الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا**»[(٢)].

وانطلاقاً من هذا النهج القرآني والنبوي ضرب سلف الأئمة وعلماؤها عبر العصور أروع الأمثلة في الحفاظ على الأوقات والحذر من تضييعها، والحرص على استعمالها في أجل الغايات والمقاصد، وأقوالهم المنقولة ومواقفهم العملية المحكية في هذا المعنى من الكثرة بمكان[(٣)].

ومن ذلك[(٤)] قول ابن مسعود رضي الله عنه: ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلي، ولم يزد فيه عملي، وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: إن الليل والنهار يعملان فيك، فاعمل فيهما، وقال الحسن البصري رضي الله عنه: يا ابن آدم، إنما أنت أيام، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك. وقال

(١) رواه الترمذي (٢٤١٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٢) رواه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥).

(٣) ويمكن مراجعة نماذج لها عند: عبد الفتاح أبو غدة: قيمة الزمن عند العلماء، ومحمد إسماعيل المقدم: علو الهمة، ص١٧٩، وسيد حسين العفاني: صلاح الأمة في علو الهمة، ٤/ ١٥١.

(٤) انظر: عبد الفتاح أبو غدة: قيمة الزمن عند العلماء، ص٤٧، وسيد حسين العفاني: صلاح الأمة في علو الهمة ٤/ ١٦٥.

أيضاً: أدركت أقواماً كانوا على أوقاتهم أشد منكم حرصاً على دراهمكم ودنانيركم.

٢٠ ـ الأمانة العلمية، والتأكيد على نسبة الأقوال لأصحابها:

ولا شك أن من أهم وألزم ما يجب أن يتصف به طالب العلم: صفة الأمانة في نقل الأقوال وعزوها لأصحابها، والأمانة العلمية عنوان الباحث المنصف، وشعار البحث الجيد، ويتعين على كل من نقل فكرة عن الغير أو استفاد علماً من أحد، أن ينسب هذه الفكرة لصاحبها، وأن يعزو العلم إلى أهله، ولا ينسى لأهل الفضل فضلهم، ولا لأهل السبق سبقهم[(١)].

ومن المقطوع به أن «فلاح الأمة في صلاح أعمالها، وصلاح أعمالها في صحة علومها، وصحة علومها في أن يكون رجالها أمناء فيما يروون أو يصفون، فمن تحدث في العلم بغير أمانة، فقد مس العلم بقرحة ووضع في سبيل فلاح الأمة حجر عثرة، ولا تخلو الطوائف المنتمية إلى العلوم من أشخاص لا يطلبون العلم ليتحلوا بأسنى فضيلة، أو لينفعوا الناس بما عرفوا من حكمة، وأمثال هؤلاء لا تجد الأمانة في نفوسهم مستقراً، فلا يتحرجون أن يرووا ما لم يسمعوا، أو يصفوا ما لم

(١) انظر: د. حلمي عبد المنعم صابر: منهجية البحث العلمي وضوابطه في الإسلام، ص١٤٧.

يعلموا، وهذا ما كان يدعو جهابذة أهل العلم إلى نقد الرجال»[١].

ومما محق كثيراً من بركة العلم في زماننا هذا الإخلال بالأمانة العلمية، والسطو على كلام الآخرين وجهودهم، وتشبع الإنسان بما لم يعط، وعدم شكر من تعلم المرء على يديه، أو استفاد منه، ومن جميل قول أهل العلم تلك المقولة الرائعة: «إن من بركة العلم أن تضيف الشيء إلى قائله»[٢]، أو «من بركة العلم وشكره عزْوُه إلى قائله»[٣]، وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: «من شكر العلم أن تستفيد الشيء، فإذا ذكر لك قلت: خفي عليَّ كذا وكذا، ولم يكن لي به علم حتى أفادني فلان فيه كذا وكذا، فهذا شكر العلم»[٤].

وقد تضافرت نصوص الشرع في ذم من فرح بما لم يفعل، أو تشبع بما لم يعط، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨٨]، وقال النبي ﷺ: «**الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ**»[٥].

---

(١) محمد الخضر حسين: رسائل الإصلاح ١/ ١٣، نقلاً عن د. بكر أبو زيد: حلية طالب العلم، ص١٨١.
(٢) ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٩٢٢.
(٣) السيوطي: المزهر ٢/ ٢٧٣.
(٤) المصدر السابق ٢/ ٢٧٣.
(٥) رواه البخاري (٥٢١٩)، ومسلم (٢١٢٩).

ويندرج في هذا الباب أيضاً النصوص الواردة في وجوب أداء الأمانة ـ بمفهومها العام ـ ورعايتها، وذم من ضيعها أو فرط فيها، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾ [المؤمنون: ٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال: ٢٧].

ومن أحاديث السُّنَّة قول النبي ﷺ: «**أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**»[١]، وقوله ﷺ: «**لا إيمان لمن لا أمانة له**»[٢]، وقوله ﷺ: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**»[٣].

وقد أخبر النبي ﷺ عن رفع الأمانة وأنه «**يأتي زمان يُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ، لَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ حَتَّى يُقَالَ: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلاً أَمِيناً، حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا أَجْلَدَهُ، مَا أَظْرَفَهُ، مَا أَعْقَلَهُ، وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ**»[٤].

كذلك أخبر ﷺ أن تضييع الأمانة من أشراط الساعة فعَنْ

(١) رواه أبو داود (٣٥٣٤)، والترمذي (١٢٦٤)، وصححه الألباني.
(٢) رواه أحمد (١٢٥٧٨)، وابن خزيمة (٢٣٣٥)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦١٧٨).
(٣) رواه البخاري (٣٣).
(٤) رواه مسلم (١٤٣).

أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ، جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ، فَكَرِهَ مَا قَالَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ. حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: «**أَيْنَ أُرَاهُ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ**». قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**فَإِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**». قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: «**إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**»(١).

ومع أن الإخلال بالأمانة العلمية أمر مرذول في ذاته، فإنه أيضاً مستلزم لعدم شكر صاحب الكلام الأصلي، ومقابلة حسن صنيعه بالإساءة، وهذا المسلك مباين لصفة المؤمنين، الذين يقرون لمن سبقهم بالفضل، ويدعون الله لهم بالمغفرة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر: ١٠].

وقد أمرنا النبي ﷺ أن نشكر من أحسن إلينا، وأن نكافئه على صنيعه، وبيَّن لنا أن من لم يشكر الناس لا يشكر الله، فقال ﷺ: «**لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ**»(٢)، وفي رواية أخرى: «**مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ**

(١) رواه البخاري (٥٩).

(٢) رواه أبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤)، وصححه الألباني.

النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ، وَالتَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللهِ شُكْرٌ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ»[(١)].

وقال ﷺ: «**وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا اللهَ لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ**»[(٢)]، وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ أُولِيَ مَعْرُوفاً فَلَمْ يَجِدْ لَهُ خَيْراً إِلَّا الثَّنَاءَ، فَقَدْ شَكَرَهُ، وَمَنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ، وَمَنْ تَحَلَّى بِبَاطِلٍ فَهُوَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ**»[(٣)]، وعن أنس قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة أتاه المهاجرون فقالوا: يا رسول الله ما رأينا قوماً أبذل من كثير، ولا أحسن مواساة من قليل من قوم نزلنا بين أظهرهم، لقد كفونا المؤنة، وأشركونا في المهنإ، حتى لقد خفنا أن يذهبوا بالأجر كله، فقال النبي ﷺ: «**لا ما دعوتم الله لهم، وأثنيتم عليهم**»[(٤)].

ونختم الكلام عن مسألة الأمانة العلمية بالإشارة إلى تفشي ظاهرة السرقات العلمية، لا سيما مع ثورة المعلومات الحالية، ونشر الكتب المصورة والأبحاث على مواقع

---

(١) رواه أحمد (١٨٧٤٠)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: حسن صحيح.
(٢) رواه أحمد (٦٢١٤)، وأبو داود (٥١٠٩)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.
(٣) رواه أبو داود (٤٨١٣)، وابن حبان (٣٤١٥)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود.
(٤) رواه الترمذي (٢٤٨٧)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي

الأنترنت، حيث صارت هذه السرقات أسهل بكثير مما مضى، وإن كان كشفها أيضاً قد تيسر عن ذي قبل بمراحل كثيرة.

ولعل من المهم أن ننبه إلى أن مفهوم السرقة العلمية مما يتغير بتغير الأعراف العلمية والعادات المستقرة بين أهل العلم الأمناء والغيورين على حمى العلم من تسلط اللصوص وجناية الدخلاء، إضافة إلى أن مفهوم السرقة العلمية يختلف في بعض جوانبه عن مفهوم السرقة المالية المستوجبة للحد، وبين المفهومين فروق عديدة، وعلى سبيل المثال فإن من ينقل من رسالته للماجستير عشرات الصفحات دون إشارة لذلك في رسالته للدكتوراه، يصدق عليه ـ في الأعراف العلمية ـ وصف السارق، بينما لا يتصور في السرقة المالية أن يسرق المرء من ماله.

وليس من الصواب بحال أن يحتج البعض بنماذج متناثرة في مصنفات العلماء السابقين على تبرير شيء من صور النقل دون عزو؛ لأن هناك فارقاً كبيراً وجوهريّاً بين واقع التصنيف العلمي قديماً بأدواته وقواعده وأعرافه في التوثيق والعزو، وبين الواقع العلمي المعاصر الذي استجدت فيه أعراف أخرى وقواعد مرعية في التوثيق والعزو، ساعد عليها انتشار الطباعة، وتوافر الكتب وسهولة الوصول إليها، واتحاد طبعاتها وترقيمها، وكل هذا يجعل من الاحتجاج بصنيع المتقدمين غير دقيق، وهو من قبيل القياس مع الفارق، وإذا كان من المقرر أن العادة

محكمة والأعراف مرعية ما لم تخالف الشرع، فهي في هذا الباب أولى.

كذلك مما يزيد الفارق اتساعاً بين الواقع القديم والمعاصر أن التأليف الآن يترتب عليه مغانم دنيوية واضحة من نيل الدرجات العلمية، والوظائف ذات الوجاهة والرواتب، وبيع الكتب والتكسب منها، وحفظ حقوق الناشرين ومحاكمة من ينتهكها، بينما الغالب على التأليف عند المتقدمين الاحتساب وطلب الثواب من الله، ولم تكن الكتب في ذاتها تجلب لصاحبها مالاً من بيعها لعموم الناس، والاستثناء القليل حينما يهديها مؤلفها لأمير أو عظيم فيجازيه على ذلك بمال أو إقطاع أو ولاية مدرسة أو خطابة أو إفتاء أو قضاء أو ما أشبه ذلك، فكيف مع هذا الاختلاف يقاس أحد الواقعين على الآخر.

وليست الآفة في الأبحاث العلمية والكتب المصنفة مقتصرة على السرقة العلمية في صورتها الفجة والواضحة للعيان، بل السرقة دركات، وفنون متشعبة ومتطورة، وبجانب السرقة هناك: التدليس بأنواعه، والإخلال بالأمانة العلمية، وتشبع المرء بما لم يعط، وإيهام التحقيق والتدقيق والفهم والإجادة.

ولعل من يرى واقع البحث العلمي اليوم، وما فيه من استشراء لوباء السرقة والإخلال بالأمانة العلمية، يدرك أن

التشدد في هذا الباب أولى من التساهل، وسد الذرائع أجدى من فتحها، والاحتياط خير من العفو والمسامحة، مع تقدير كل حالة بظروفها، والقرائن المحيطة به.

٢١ ـ اليسر والسهولة، والحرص على إفهام المتلقين للعلم ومخاطبتهم بأقرب طريق:

وقد بعث الرسل والأنبياء لإبلاغ دين الله ووحيه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، ومن أجل تحقق البلاغ في أتم صوره شاء الله أن يرسل كل رسول بلسان قومه، ليتحقق معنى البيان والفهم والإفهام، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٤].

واليسر والسهولة خصيصتان بارزتان لدين الإسلام كله: عقيدة وشريعة وأخلاقاً، وقرآناً وسُنَّة، وأصولاً وفروعاً[(١)]، فدين الإسلام كله بعقائده وشرائعه وأخلاقه يسر لا عسر فيه بأي وجه من الوجوه، والحرج والمشقة مرفوعان ومنفيان جملة وتفصيلا، والتخفيف عند وجود المشقة قاعدة أصيلة من قواعد الدين، وكما يقول الإمام الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن التكاليف الاعتقادية والعملية مما يسع الأمي تعقلها، ليسعه الدخول تحت حكمها»، ثم يصف الأمور العقدية بأنها لا بد أن «تكون من

(١) انظر: أحمد قوشتي: في العقيدة الإسلامية، مدخل ودراسة، ص٥٧، دار الهاني، ٢٠٠٤م.

القرب للفهم والسهولة على العقل بحيث يشترك فيها الجمهور، مَن كان منهم ثاقب الفهم أو بليداً، فإنها لو كانت مما لا يدركه إلا الخواص، لم تكن الشريعة عامة، وقد ثبت كونها كذلك، فلا بد أن تكون المعاني المطلوب علمها واعتقادها سهلة المآخذ»[(١)].

وقد تكررت الإشارة إلى يسر الدين وانتفاء الحرج والمشقة كثيراً في الكتاب والسُّنَّة، ومن ذلك قول الله سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ﴾ [الحج: ٧٨].

وببعثة النبي ﷺ وضع الله عنا الآصار والأغلال التي كانت على من كانوا قبلنا كما قال سبحانه ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وقال النبي: «**إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه**»[(٢)]، ومن هديه وأخلاقه أنه «**ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن آثماً**»[(٣)].

(١) الشاطبي: الموافقات ٢/ ٨٨.
(٢) رواه البخاري (٣٩)، والنسائي (٥٠٣٤).
(٣) رواه البخاري (٣٥٦٠، ٦١٢٦)، ومسلم (٢٣٢٧).

ومصدرا هذا الدين الأساسيان، وهما القرآن والسُّنَّة سهلان يسيران لمن رام تفهمها وتدبرها، كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧] وقد أنزل الله القرآن بلسان عربي مبين ومفصل، حتى تنقطع حجج العباد، ولئلا يحتج أحد باستحالة الفهم أو صعوبة الإدراك لما تضمنه من معان ومقاصد، وأما سُنَّة النبي ﷺ فقد أُعْطِي الرسول جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصاراً، وجاءت أحاديثه في الذروة العليا من الفصاحة والبيان.

والعقيدة الإسلامية عقيدة سهلة تخلو من التعقيد والصعوبة والغموض أو الأسرار كبعض العقائد الأخرى، فأصول العقيدة الإسلامية واضحة ومحدودة، ويمكن فهمها واستيعابها من الكبير والصغير والمتعلم والأمي والحضري والبدوي، وقد كان الأعرابي يأتي النبي ﷺ فيسأله عن الإسلام بعقائده وأحكامه فيعلمه الرسول ﷺ ذلك في كلمات معدودة.

ونضرب لذلك مثالاً بما في «الصحيح» عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، الْعَاقِلُ، فَيَسْأَلَهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَتَانَا رَسُولُكَ، فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «**صَدَقَ**»، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قَالَ: «**اللهُ**»، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ قَالَ: «**اللهُ**»، قَالَ: فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ، وَجَعَلَ فِيهَا مَا

جَعَلَ؟ قَالَ: «اللهُ»، قَالَ: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَخَلَقَ الْأَرْضَ وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ، آللهُ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِنَا وَلَيْلَتِنَا، قَالَ: «صَدَقَ»، قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ آللهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا زَكَاةً فِي أَمْوَالِنَا؟ قَالَ: «صَدَقَ»، قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ آللهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي سَنَتِنَا؟ قَالَ: «صَدَقَ»، قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ آللهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا حَجَّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً؟ قَالَ: «صَدَقَ»، قَالَ: ثُمَّ وَلَّى، قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَا أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُنَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ**»[١].

فها هو النبي ﷺ قد جمع لهذا الأعرابي أصول الدين وفرائضه في كلمات وجيزة، وبأسلوب سهل يسير، لا يصعب عليه فهمه أو إدراكه.

كذلك يعتبر الوضوح والبيان، والخلو من التعارض والتناقض، والغموض والتعقيد إحدى خصائص الإسلام العامة وميزاته البارزة[٢]، والتي تتجلى في كل جوانب هذا الدين،

(١) رواه مسلم (١٢).
(٢) انظر: أحمد قوشتي: في العقيدة الإسلامية، مدخل ودراسة، ص٥٤.

سواء فيما يتعلق بالأصول، والقواعد، أم بالمصادر والمنابع، أم بالأهداف والغايات، أم بالمناهج والوسائل(١).

فمصادر الإسلام الأساسية التي تستقى منها عقائده وشرائعه واضحة ومبينة ومحددة، وهي متمثلة في القرآن والسُّنَّة، وكلاهما قد بلغا الغاية في البيان والوضوح، فالقرآن كتاب ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: ١]، وكلام النبي ﷺ في قمة الفصاحة والبيان، بل إن من مقاصد إيحائه الأساسية أن يبين للناس ما نزل عليهم كما قال سبحانه ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [النحل: ٤٤].

وأهداف الإسلام وغاياته واضحة، وتتمثل في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الشرك إلى التوحيد، وتعبيدهم لربهم جل وعلا، وإرشادهم إلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وأصول الإسلام العقدية كتوحيد الله والإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر واضحة ويسيرة الفهم، وخالية من كل تعقيد أو غموض، وقد قام على صحتها ما لا يحصى من البراهين النقلية والعقلية والفطرية الكافية لإقناع كل عقل أياً كان مقداره من العلم والمعرفة.

---

(١) انظر: د. يوسف القرضاوي: الخصائص العامة للإسلام، ص١٧٧ - ٢٠٢، ود. ناصر بن عبد الكريم العقل: بحوث في عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة، ص٣٥، ود. سعد الدين صالح: العقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحديث، ص٢٢، ٢٣.

وفي مقابل هذا الوضوح والبيان في العقيدة الإسلامية نجد العقائد والمذاهب الفلسفية الأخرى مليئة بالصعوبة والتعقيد والغموض واستحالة الفهم، حتى صار شعار البعض منها كالمسيحية: اعتقد أولاً ثم فكر، كما تضمنت الكثير من الأسرار التي لا يستطيع أحد فهمها سوى قلة من رجال الكهنوت الذين يزعمون كذباً أنهم قد وقفوا على تلك الأسرار، مع أن الخلاف بينهم دائم ومستمر، ويكفي أن نضرب مثلاً لذلك بقضية طبيعة المسيح عليه السلام، وهل هو إلٰه أم ابن إلٰه، أم بشر خالص، أم بشر حل فيه الإلٰه، أم جزء من أقانيم ثلاثة يتكون منها الإلٰه، وقد عقدت المجامع الكنسية للفصل في تلك المسائل وتفرق النصارى بسببها شيعاً وأحزاباً، مع أن الحق فيها واضح ويسير وهو أن المسيح عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، وليس إلٰهاً ولا ابن إلٰه ولن يستنكف قط أن يكون عبداً لله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء: ١٧٢].

وفي السُّنَّة النبوية أحاديث كثيرة تدل على سمة الوضوح والبيان، والأمر بالتيسير في التعليم، والحرص على تفهيم المتعلمين من أيسر طريق وأقربه، ومن ذلك أنه ﷺ كان إذا تكلم كلمة أعادها ثلاثاً[١].

(١) رواه البخاري (٩٤).

وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَسْرُدُ الْكَلَامَ كَسَرْدِكُمْ هَذَا، كَانَ كَلَامُهُ فَصْلاً يُبَيِّنُهُ، يَحْفَظُهُ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ[(١)]، وعنها رضي الله عنها أنها قالت إن النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُحَدِّثُ حَدِيثاً لَوْ عَدَّهُ الْعَادُّ لَأَحْصَاهُ[(٢)].

وقد جمع النبي ﷺ بين الأمر بالتعليم، وبين الأمر بالتيسير وعدم التعسير، فقال: «**عَلِّمُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا**»[(٣)].

٢٢ ـ الاستعانة بالأكفاء في كل مجال وتبادل الخبرات والمشورة:

والمتتبع لسُنَّة النبي ﷺ وسيرته يدرك بوضوح أنه كان يستعين في كل مهمة أو ولاية أو تكليف بمن هو أهل لها، وأجدر بها من غيره، والنماذج في هذا الصدد كثيرة ومتنوعة.

ومن ذلك ما رواه مسلم عنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «**اهْجُوا قُرَيْشاً، فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِنْ رَشْقٍ بِالنَّبْلِ!**» فَأَرْسَلَ إِلَى ابْنِ رَوَاحَةَ فَقَالَ: «**اهْجُهُمْ**» فَهَجَاهُمْ، فَلَمْ يُرْضِ، فَأَرْسَلَ إِلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ حَسَّانُ: قَدْ آنَ لَكُمْ أَنْ تُرْسِلُوا إِلَى هَذَا الأَسَدِ

(١) النسائي في الكبرى (١٠١٧٣)، وأصل الحديث عند البخاري (٣٥٦٧)، ومسلم (٢٤٩٣).
(٢) رواه البخاري (٣٥٦٧)، ومسلم (٢٤٩٣).
(٣) رواه أحمد (٢١٦٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٧٥).

الضَّارِبِ بِذَنَبِهِ! ثُمَّ أَدْلَعَ لِسَانَهُ فَجَعَلَ يُحَرِّكُهُ، فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَفْرِيَنَّهُمْ بِلِسَانِي فَرْيَ الْأَدِيمِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَعْجَلْ، فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَعْلَمُ قُرَيْشٍ بِأَنْسَابِهَا، وَإِنَّ لِي فِيهِمْ نَسَباً حَتَّى يُلَخِّصَ لَكَ نَسَبِي**». فَأَتَاهُ حَسَّانُ، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ لَخَّصَ لِي نَسَبَكَ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَسُلَّنَّكَ مِنْهُمْ كَمَا تُسَلُّ الشَّعَرَةُ مِنَ الْعَجِينِ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ لِحَسَّانَ: «**إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ**». وَقَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**هَجَاهُمْ حَسَّانُ فَشَفَى وَاشْتَفَى**»(١).

فحينما تفوق حسان رضي الله عنه على كل من ابن رواحة، وكعب ابن مالك فاختاره النبي ﷺ، وأمره أن يستفيد من خبرات أبي بكر رضي الله عنه في ميدان الأنساب.

وثمة نموذج آخر في ميدان الجهاد والقتال، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه: سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ يَوْمَ خَيْبَرَ: «**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلاً يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ**». فَقَامُوا يَرْجُونَ لِذَلِكَ أَيُّهُمْ يُعْطَى فَغَدَوْا وَكُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَى فَقَالَ: أَيْنَ عَلِيٌّ فَقِيلَ: يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ فَأَمَرَ فَدُعِيَ لَهُ فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ فَبَرَأَ مَكَانَهُ حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِهِ شَيْءٌ فَقَالَ: نُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا فَقَالَ: «**عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ**

---

(١) رواه مسلم (٢٤٩٠).

عَلَيْهِمْ فَوَاللهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»[(١)].

وليس صغر السُّنَّة مانعاً دون اختيار الأكفاء وتقديمهم، سواء أكان ذلك في مجال الحرب أو مجال العلم والمشورة، وقد اختار النبي ﷺ أسامة بن زيد لقيادة جيش فيه كبار الصحابة وكان وقتها شاباً صغير السن، عمره عشرون سنة وقيل ثماني عشرة سنة[(٢)]، وكان صغر السن هذا باعثاً لطعن البعض في إمرته، فرد عليهم النبي ﷺ بنفسه، وبين استحقاقه للإمارة، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْثاً، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، فَطَعَنَ بَعْضُ النَّاسِ فِي إِمَارَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«أَنْ تَطْعَنُوا فِي إِمَارَتِهِ، فَقَدْ كُنْتُمْ تَطْعَنُونَ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ، وَايْمُ اللهِ إِنْ كَانَ لَخَلِيقاً لِلْإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنَّ هَذَا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَهُ»**[(٣)].

كذلك قرب عمر بن الخطاب رضي الله عنه عبد الله بن عباس، وجعله من أهل مشورته رغم خروج أصوات معترضة على صغر سنه، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الْفَتَى مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، قَالَ: فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي

---

(١) رواه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦).
(٢) انظر ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ١/ ٢٠٢.
(٣) رواه البخاري (٣٧٣٠)، ومسلم (٢٤٢٦).

مَعَهُمْ، قَالَ: وَمَا رُؤِيتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مِنِّي، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ﴾ حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نَدْرِي، أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئاً، فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَكَذَاكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُ اللهُ لَهُ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ فَتْحُ مَكَّةَ، فَذَاكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ قَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ»[(١)].

وعلى هذا السنن الأقوم والنهج العظيم سار صحابة رسول الله ﷺ، وخلفاؤه الراشدون، حينما تصدوا لمهمة من أعظم المهام وأجلها وهي جمع القرآن الكريم، حيث كلف أبو بكر الصديق رضي الله عنه من رآه أجدر الناس بهذا الأمر، وهو زيد بن ثابت رضي الله عنه، وقد حكى زيد تفاصيل ذلك، وأن أبا بكر رضي الله عنه أرسل إليه عقب مقتل أهل اليمامة، وعنده عُمرُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي فَقَالَ: إِنَّ الْقَتْلَ قَدِ اسْتَحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِالنَّاسِ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرَّاءِ فِي الْمَوَاطِنِ، فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْقُرْآنِ، إِلَّا أَنْ تَجْمَعُوهُ، وَإِنِّي لَأَرَى أَنْ تَجْمَعَ الْقُرْآنَ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: قُلْتُ لِعُمَرَ: كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئاً لَمْ يَفْعَلْهُ

---

(١) رواه البخاري (٤٢٩٤).

رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ عُمَرُ: هُوَ وَاللهِ خَيْرٌ، فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي فِيهِ حَتَّى شَرَحَ اللهُ لِذَلِكَ صَدْرِي، وَرَأَيْتُ الَّذِي رَأَى عُمَرُ، قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: وَعُمَرُ عِنْدَهُ جَالِسٌ لَا يَتَكَلَّمُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ وَلَا نَتَّهِمُكَ، كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَتَتَبَّعِ الْقُرْآنَ فَاجْمَعْهُ. فَوَاللهِ لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ. قُلْتُ: كَيْفَ تَفْعَلَانِ شَيْئاً لَمْ يَفْعَلْهُ النَّبِيُّ ﷺ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هُوَ وَاللهِ خَيْرٌ، فَلَمْ أَزَلْ أُرَاجِعُهُ حَتَّى شَرَحَ اللهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ اللهُ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقُمْتُ: فَتَتَبَّعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ»(١).

وفيما يشبه الآن فريق العمل، ووضع ضوابط مرشدة لطريقة عمله، اختار عثمان رضي الله عنه عدداً من الصحابة لجمع القرآن جمعاً ثانياً في عهده، فعن أَنَسٍ أَنَّ عُثْمَانَ دَعَا زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ وَعَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ فَنَسَخُوهَا فِي الْمَصَاحِفِ، وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ الثَّلَاثَةِ إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ. فَفَعَلُوا ذَلِكَ(٢).

(١) رواه البخاري (٤٦٧٩).
(٢) رواه البخاري (٣٥٠٦).

٢٣ ـ الثناء على المتميزين وتشجيعهم، وتصحيح أخطاء المخطئين:

وفي السُّنَّة نماذج كثيرة من هذا الأمر، حيث كان النبي ﷺ يثني على من تميز بعلم أو خلق حسن، ومن ذلك ثناؤه على أبي بن كعب لما أجاب عن سؤال النبي له عن أي آية في كتاب الله أعظم، فعن أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «**وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ، أَبَا الْمُنْذِرِ**»[(١)].

وأثنى النبي ﷺ على أبي هريرة لحرصه على العلم والتلقي لحديث رسول الله ﷺ، وملازمته ملازمة تامة، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ؛ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ**»[(٢)].

---

(١) رواه مسلم (٨١٠).

(٢) رواه البخاري (٩٩)، ومسلم (١٨٤٧).

كذلك كان النبي ﷺ يثني على أصحابه ويمدحهم لما يتحلون به من جميل الصفات وكريم الشيم، ومن ذلك مدحه ﷺ لحياء عثمان بن عفان رضي الله عنه، حيث قال: «**أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ**»(١)، ومدحه ﷺ للحلم والأناة عند أشج عبد القيس، حيث قال له: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاةُ**»(٢).

وربما فعل بعض الصحابة فعلاً ما فيه شيء من الاجتهاد، فيبشره النبي ﷺ بالفضل العظيم لفعله هذا، فعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلاً عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِ فَيَخْتِمُ بِـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ**». فَسَأَلُوهُ فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ**»(٣)

وعنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلاً جَاءَ فَدَخَلَ الصَّفَّ وَقَدْ حَفَزَهُ النَّفَسُ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْداً كَثِيراً طَيِّباً مُبَارَكاً فِيهِ. فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاتَهُ قَالَ: «**أَيُّكُمُ الْمُتَكَلِّمُ بِالْكَلِمَاتِ؟** فَأَرَمَّ الْقَوْمُ فَقَالَ: **أَيُّكُمُ الْمُتَكَلِّمُ بِهَا؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ بَأْساً** فَقَالَ رَجُلٌ: جِئْتُ وَقَدْ حَفَزَنِي النَّفَسُ فَقُلْتُهَا، فَقَالَ: **لَقَدْ رَأَيْتُ اثْنَيْ عَشَرَ**

(١) رواه مسلم (٢٤٠١).
(٢) رواه مسلم (١٧).
(٣) رواه البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣).

مَلَكاً يَبْتَدِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَرْفَعُهَا»[١].

وقد أثنى النبي ﷺ على أعرابي سأل فأحسن السؤال، فعن أبي أيوب الأنصاري أن أَعْرَابِيّاً عَرَضَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي سَفَرٍ، فَأَخَذَ بِخِطَامِ نَاقَتِهِ، أَوْ بِزِمَامِهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوْ يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي بِمَا يُقَرِّبُنِي مِنَ الْجَنَّةِ وَمَا يُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ، قَالَ: فَكَفَّ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ نَظَرَ فِي أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**لَقَدْ وُفِّقَ، أَوْ لَقَدْ هُدِيَ**»، قَالَ: «**كَيْفَ قُلْتَ؟**» قَالَ: فَأَعَادَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، دَعِ النَّاقَةَ**»[٢].

وليس الثناء على الحريصين على العلم ومدحهم بمانع من تصحيح خطأ من أخطأ في مسألة علمية ما، سواء في فهم النص، أو معرفة الحكم أو تنزيله على الواقع، وهذا أسامة ابن زيد كان حب رسول الله ﷺ وابن حبه، ولم يحل ذلك دون أن يصحح له رسول الله ﷺ خطأه، وأن يغضب منه لفعله ما لا يصح أن يفعله.

فعَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ قُرَيْشاً أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟

(١) رواه مسلم (٦٠٠).
(٢) رواه البخاري (١٣٩٦)، ومسلم (١٣).

فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ**»، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**»[(١)].

وثمة موقف آخر حصل مع أسامة رضي الله عنه، حيث بعثه رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْحُرَقَةِ، يقول: «فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ، وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلاً مِنْهُمْ، فَلَمَّا غَشِينَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَكَفَّ الْأَنْصَارِيُّ، فَطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: **يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**. قُلْتُ: كَانَ مُتَعَوِّذاً، فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا، حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ»[(٢)].

وحينما أخطأ بعض الصحابة في دعائه صحح له النبي ﷺ خطأه، فعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَادَ رَجُلاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ خَفَتَ فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟**» قَالَ: نَعَمْ كُنْتُ أَقُولُ: اللَّهُمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الْآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**سُبْحَانَ اللهِ لَا تُطِيقُهُ أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ، أَفَلَا قُلْتَ: اللَّهُمَّ** ﴿ءَاتِنَا

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨).

(٢) رواه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦).

فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾» قَالَ: فَدَعَا اللهَ لَهُ فَشَفَاهُ(١).

وكان النبي ﷺ ينكر على أصحابه إذا شتم أحدهم مملوكه أو ضربه ضرباً مبرحاً، فعن أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ قال: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَاماً لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتاً مِنْ خَلْفِي: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ. فَلَمْ أَفْهَمِ الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ، قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: «**اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ**». قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي، فَقَالَ: «**اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ**». قَالَ: فَقُلْتُ: لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكاً بَعْدَهُ أَبَداً(٢).

وعَنِ الْمَعْرُورِ قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلاً فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ**»(٣).

وقد يكون تصحيح الخطأ لأحد الأفهام التي شاعت بين الناس، فعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**أَيُّهَا**

(١) رواه مسلم (٢٦٨٨).
(٢) رواه مسلم (١٦٥٩).
(٣) رواه البخاري (٣٠)، مسلم (١٦٦١).

النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرَؤُونَ هَذِهِ الْآيَةَ وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَا وَضَعَهَا اللهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ **إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ، يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ**»[(١)].

وربما أتى التصحيح لسؤال ما كان له أن يصدر ممن له علم وفقه، فعن عَوْف بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيُّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ يَوْماً، فَقَالَ: «**هَذَا أَوَانُ يُرْفَعُ الْعِلْمُ**»، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ لَبِيدُ بْنُ زِيَادٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، يُرْفَعُ الْعِلْمُ، وَقَدْ أُثْبِتَ وَوَعَتْهُ الْقُلُوبُ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنْ كُنْتُ لَأَحْسَبُكَ مِنْ أَفْقَهِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ ذَكَرَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى عَلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ كِتَابِ اللهِ**»[(٢)].

٢٤ ـ توظيف الطاقات والمواهب في خدمة الدين، ومراعاة الفروق الفردية:

وقد حرص النبي ﷺ على استخراج أفضل ما يتميز به كل واحد من أصحابه ويبرع فيه، مع توظيف ذلك كله لخدمة الدين، كما راعى ﷺ الفروق في المهارات، والقدرات بينهم وأقر باختلاف اهتمامات الناس وحظوظهم.

---

(١) رواه أحمد (١)، وأبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود والترمذي.

(٢) رواه أحمد (٢٤٦٢٣)، والنسائي في الكبرى (٥٨٧٨)، وصححه الألباني في صحيح الموارد (١٠٠).

ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾ [الليل: ٤]، وقول النبي ﷺ: «**كل ميسر لما خلق له**»[1]، وقوله ﷺ: «**الناس معادن، كمعادن الفضة والذهب، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا**»[2]، وقوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمُ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ، وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ**».

وقد صاحب الأمر السابق التأكيد على أن تميز أحد الصحابة في مجال معين، أو اختصاصه بفضيلة ما لا يعنى أنه أفضل من غيره مطلقاً، وربما كان الصحابي ذا منزلة عظيمة عند الله ورسوله، ولكنه لا يصلح لتولي مهمة ما لا تناسب قدراته.

ومثال ذلك ما حدث مع الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، فرغم زهده وصدق لهجته، وسابق إسلامه، فإنه لما سأل النبي ﷺ الإمارة، وقال له: ألا تستعملني، فضرب ﷺ بيده على منكبه ثم قال: «**يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها**»[3].

(١) رواه البخاري (٤٩٤٩، ٧٥٥١)، ومسلم (٢٦٤٩).
(٢) رواه البخاري (٣٤٩٤)، ومسلم (٢٦٣٨).
(٣) رواه مسلم (١٨٢٥).

والمتأمل لأحوال الصحابة ﵃ يلحظ بوضوح نوعاً من التخصص أو تنوع المهارات، فأبي بن كعب كان أقرأ الصحابة، وكذا عبد الله بن مسعود ﵁، وبلال من أنداهم صوتاً، وأصلحهم للأذان وعلي من أقضاهم، ومعاذ من أعلمهم بالحلال والحرام، وزيد من أمهرهم في علم الفرائض والمواريث.

وقد أخبر النبي ﷺ عن هذا الأمر فقال: «**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم علي بن أبي طالب، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، ألا وإن لكل أمة أميناً، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح**»(١).

كذلك كان حذيفة من أكثر الصحابة معرفة بالفتن، وأسماء المنافقين وأشراط الساعة، وقد أخبر عن نفسه، فقال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني»(٢).

وأما أبو هريرة فكان أحفظ الصحابة لحديث رسول الله ﷺ، وأحرصهم على سماعه وتتبعه، وقد لمح النبي ﷺ منه ذلك الحرص، وأثني عليه به(٣).

(١) رواه ابن ماجه (١٥٥)، وأبو يعلى في مسنده (٥٧٦٣).
(٢) رواه البخاري (٧٠٨٤)، ومسلم (١٨٤٧).
(٣) رواه البخاري (٩٩)، ومسلم (١٨٤٧).

وفي مجال الحرب والقتال نجد مهارة خالد بن الوليد، وتميزه، وبلاءه الحسن الذي فاق غيره من عباد الصحابة وقرائهم، حتى استحق أن يصفه رسول الله ﷺ يوم مؤتة بأنه سيف من سيوف الله، فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَعَى زَيْداً، وَجَعْفَراً وَابْنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبَرُهُمْ، فَقَالَ: «**أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ - وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ - حَتَّى أَخَذَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ، حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ**»(١)، وقال ﷺ: «**خالد سيف من سيوف الله ونعم فتى العشيرة**»(٢)، وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه عَقَدَ لِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ عَلَى قِتَالِ أَهْلِ الرِّدَّةِ وَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**نِعْمَ عَبْدُ اللهِ، وَأَخُو الْعَشِيرَةِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَسَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ، سَلَّهُ اللهُ عز وجل عَلَى الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ**»(٣).

وفي مجال الشعر والخطابة والذب عن المسلمين يبرز قيس بن ثابت، وكذا حسان بن ثابت، الذين قال عنه النبي ﷺ: «**إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح عن رسول الله**»(٤)،

---

(١) رواه البخاري (٣٧٥٧).

(٢) رواه أحمد في مسنده (١٧٠٩٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٠٨).

(٣) رواه أحمد (٤٤) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٤) رواه أبو داود (٤٩٩٩)، والحاكم في المستدرك (٦١١١)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود.

وأمره ﷺ أن يهجو المشركين فقال: «**اهجهم وجبريل معك**»[1].

وحينما شعر النبي ﷺ بالحاجة لمن يتعلم العبرية أمر زيد بن ثابت رضي الله عنه، والذي يحكي ذلك فيقول: «أمرني رسول الله ﷺ أن أتعلم له كلمات من كتاب يهود، قال: **إني والله ما آمن يهود على كتابي**، قال: فما مر بي نصف شهر حتى تعلمته له، قال: فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم، وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم»[2].

وقد نبَّه عمر رضي الله عنه الناس إلى جوانب التميز، وما اختص به كل واحد من الصحابة حيث خطب يوماً فقال «من أراد أن يسأل عن القرآن، فليأت أبي بن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض، فليأت زيداً، ومن أراد أن يسأل عن الفقه، فليأت معاذاً، ومن أراد أن يسأل عن المال، فليأتني»[3].

كذلك أدرك التابعون رضي الله عنهم هذا التفاوت بين الصحابة ـ مع فضلهم جميعاً في العلم والحفظ فعَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: «جَالَسْتُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَكانُوا كَالْإِخَاذِ يَرْوِي الرَّاكِبَ، وَالْإِخَاذِ يَرْوِي الرَّاكِبَيْنِ، وَالْإِخَاذِ يَرْوِي الْعَشَرَةَ، وَالْإِخَاذُ لَوْ نَزَلَ بِهِ أَهْلُ

---

(١) رواه البخاري (٣٢١٣)، ومسلم (٢٤٨٦).

(٢) رواه أحمد (٢١١٠٨)، أبو داود (٣٦٤٥)، والترمذي (٢٧١٥)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١/ ٣٩٤.

الْأَرْضِ لَأَصْدَرَهُمْ، وَإِنَّ عَبْدَ اللهِ ـ أي: ابن مسعود رضي الله عنه ـ مِنْ تِلْكَ الْإِخَاذِ»[١].

ولم يقتصر هذا التخصص الذي رعاه وشجعه ﷺ على الرجال فحسب، بل امتد إلى النساء أيضاً، فعائشة رضي الله عنها كانت من أفقه نساء الصحابة وأعلمهن، وزينب من أكرمهن وأكثرهن صدقة وأطولهن يداً في البذل والعطاء، وأم عطية رضي الله عنها كانت المغسلة للأموات من النساء.

وهناك عدد من النساء اللاتي كن يخرجن في الغزو، يداوين الجرحى ويقمن على المرضى[٢]، ومن هؤلاء النسوة: أم عمارة نسيبة بنت كعب ورفيدة الأسلمية، وأم عطية الأنصارية رضي الله عنهما، وقد روى مسلم في صحيحه عنها أنها قالت: «غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، أخلفهم في رحالهم، فأصنع لهم الطعام، وأداوي الجرحى، وأقوم على المرضى»[٣].

٢٥ ـ التحذير من تصدر الجهال والأدعياء، وتصديهم لقضايا الأمة الكبار:

وثمة أحاديث كثيرة حذر فيها النبي ﷺ من هذا الأمر،

(١) رواه زهير بن حرب في كتاب العلم رقم (٥٩)، وصحح الشيخ الألباني إسناده.

(٢) انظر: د. عبد الله عبد الرزاق مسعود: الطب ورائداته المسلمات، ص٢٤، ٢٥، مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.

(٣) رواه مسلم (١٨١٢).

وبين ما يترتب عليه من آثار وخيمة على الأمة كلها، ومن ذلك قوله ﷺ: «**سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ. وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ**، قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: **الرَّجُلُ التَّافِهُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ**»[(١)]، وقال ﷺ: «**إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**». قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: «**إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**»[(٢)].

وفي مجال العلم على وجه الخصوص أخبر النبي ﷺ «**أن من أشراط الساعة أن يلتمس العلم عند الأصاغر**»[(٣)]، كما بيَّن ﷺ أن العلم يقبض بقبض الله العلماء «**حتى إذا لم يُبقِ عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا**»[(٤)].

٢٦ ـ الإشادة بالعمل اليدوي ومدح أصحابه:

وتظهر أهمية هذا الأمر إذا قارناه بحضارات أخرى حقرت من العمل اليدوي، وجعلته من وظائف الطبقات الدنيا، أما الصفوة وعلية القوم فهم أصحاب النشاطات العقلية والتفكير

---

(١) رواه أحمد (٨٠٢٧)، وابن ماجه (٤١٥٣)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه.
(٢) رواه البخاري (٥٩).
(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠٤٠١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٠٧).
(٤) رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

الذهني، دون أن يهبطوا إلى درجة التلبس بممارسة الأعمال اليدوية أو البدنية بصفة عامة.

أما في الإسلام، فقد أمر الله عباده بالسعي، والمشي في مناكب الأرض لطلب الرزق والابتغاء من فضل الله، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥]، وقال سبحانه ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

وقال النبي ﷺ: «**ما أكل أحدٌ طعاماً قطُّ خيراً من أن يأكل من عمل يده**»[١]، وقال ﷺ: «**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلةٌ، فإن استطاع ألّا يقوم حتى يغرسها فليفعلْ**»[٢].

كذلك جعل النبي ﷺ العمل لإطعام الصغار، أو الأبوين، أو إعفاف النفس نوعاً من الجهاد، فعن كعب بن عُجرة رضي الله عنه قال: مرَّ على النبيِّ ﷺ رجلٌ، فرأى أصحابُ رسول الله ﷺ مِنْ جَلَدِه ونشاطِهِ، فقالوا: يا رسولَ الله! لوْ كانَ هذا في سبيلِ الله؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «**إنْ كانَ خرج يَسْعى على وَلَدِه صغاراً فهو في سبيل الله، وإنْ كان خرجَ يسْعى على أبوينِ شَيْخَينِ كبيرَينِ فهو في سبيلِ الله، وإنْ كان خَرج يَسْعى على نفْسِه يَعَفُّها فهو في سبيلِ الله، وإنْ كان خرجَ يَسْعى رياءً**

(١) رواه البخاري (٢٠٧٢).
(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٤٧٩).

ومُفاخَرةً فهو في سبيلِ الشيطانِ»[١].

ويمتد الأمر إلى عالم الآخرة، فمن كان محبّاً للزرع وشغوفاً به، فسوف يحقق الله له ما يرغبه ويتمناه في الآخرة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَوْماً يُحَدِّثُ، وَعِنْدَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ: **أَنَّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الزَّرْعِ، فَقَالَ لَهُ: أَلَسْتَ فِيمَا شِئْتَ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ، قَالَ: فَبَذَرَ، فَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ وَاسْتِحْصَادُهُ، فَكَانَ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، فَيَقُولُ اللهُ: دُونَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، فَإِنَّهُ لَا يُشْبِعُكَ شَيْءٌ.** فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: وَاللهِ لَا تَجِدُهُ إِلَّا قُرَشِيّاً أَوْ أَنْصَارِيّاً، فَإِنَّهُمْ أَصْحَابُ زَرْعٍ، وَأَمَّا نَحْنُ فَلَسْنَا بِأَصْحَابِ زَرْعٍ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ»[٢].

والعمل اليدوي أيضاً من سنن الأنبياء والمرسلين، فقد صنع نوح عليه السلام الفلك، وآجر موسى عليه السلام نفسه للرجل الصالح من أهل مدين عشر سنين ليتزوج ابنته، وعلم الله داود صنعة الدروع فقال سبحانه: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء: ٨٠] ورعى نبينا ﷺ الغنم، وقال: «**ما بعث الله نبيّاً إلا رعى الغنم**»، فقال

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٨٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٢٨).

(٢) رواه البخاري (٢٣٤٨).

أصحابه: وأنت؟ قال: «**نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة**»[١].

٢٧ ـ النزول عند رأي الخبراء، وأهل المعرفة في الأمور الدنيوية[٢]:

وقد أمر الله تعالى في كتابه بسؤال أهل الذكر عموماً، فقال سبحانه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾ [النحل: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٩﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝١٤﴾ [فاطر: ١٤].

وأمر النبي ﷺ المسلم أن يتعلم من أخطائه، وألا يكرر نفس الخطأ مرتين، فقال: «**لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين**»[٣].

وعلى المستوى العملي علم النبي ﷺ أمته أن ينزلوا عند رأي الخبراء، العالمين بكل فن من الفنون، ومن أمثلة ذلك المشورة يوم بدر ويوم الخندق، وقصة تأبير النخل، وغيرها من الحوادث، ويمكن أن ندرج تحت هذه القاعدة أيضاً قوله ﷺ: «**تداووا عباد الله**»[٤]؛ لأنه إذا كان مأموراً بالتداوي، فلا شك

---

(١) رواه البخاري (٢١٠٢).
(٢) انظر: د. يوسف القرضاوي: الرسول والعلم، ص٥٤.
(٣) رواه البخاري (٦١٣٣)، ومسلم (٢٩٩٨).
(٤) رواه أحمد (١٧٩٨٧)، وأبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، وابن ماجه (٣٤٣٦)، وصححه الألباني.

أن ذلك مستلزم لاستشارة أهل الطب، والعالمين بفنونه وأنواعه.

٢٨ ـ الاستفادة من تجارب وخبرات الأمم الأخرى ـ حتى لو كانت كافرة ـ طالما لم يتعارض ذلك مع أمر شرعي:

وقد حفلت السُّنَّة بنماذج كثيرة تدل على هذا الأمر، ومنها حفر الخندق الذي أشار به سلمان الفارسي في غزوة الأحزاب، ولم يكن معروفاً عند العرب، وإنما كان من مكائد الفرس وحيلهم في الحروب.

كذلك ثبت في السُّنَّة أن النبي ﷺ استدل على عدم ضرر فعل معين ـ وهو وطء الرجل لامرأته المرضع ـ بأن الروم والفرس يفعلونه ولا يضرهم، فعن جدامة بنت وهب الأسدية أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لقد هممت أن أنهى عن الغيلة، حتى ذكرت أن الروم وفارس يصنعون ذلك فلا يضر أولادهم**»[1].

وحينما أراد النبي ﷺ أن يبعث برسائل للملوك من حوله أخبر أنهم لا يقبلون كتاباً إلا إذا كان مختوماً، فلم يجد حرجاً في ذلك، واتخذ خاتماً نقشه: محمد رسول الله ﷺ، فعن أنس بن مالك قال: «كتب النبي ﷺ كتاباً، أو أراد أن يكتب، فقيل له إنهم لا يقرءون كتاباً إلا مختوماً، فاتخذ خاتماً من

(١) رواه مسلم (١٤٤٢).

فضة نقشه محمد رسول الله، كأني أنظر إلى بياضه في يده»[١].

٢٩ ـ عمومية التعليم، وعدم قصره على طبقة دون أخرى:

ونعني بذلك أن تلقي العلم في الإسلام منذ نشأته الأولى كان متاحاً لكل أفراد المجتمع من الكبار والصغار، والأغنياء والفقراء، والأحرار والعبيد والرجال والنساء.

ولم يكن العلم في الإسلام حكراً على طبقة بعينها، أو مختصّاً بطائفة دون أخرى، كما هو الحال في كثير من الحضارات الأخرى، التي جعلت العلم وقفاً على الطبقات العليا من السادة، أو الكهنة، أو القساوسة، أو الفلاسفة، وحرمت منه العبيد والفقراء والطبقات الدنيا، وقد حدث ذلك في كل من الحضارة المصرية القديمة والهندية واليونانية والمسيحية، بل إن العلم في بعض تلك الحضارات كان له لغة خاصة ـ وربما سرية ـ لا تتاح معرفتها إلا للصفوة وحدهم[٢].

أما الحال في الإسلام فكان على العكس من ذلك تماماً، حيث أتيح العلم لطالبيه، بغض النظر عن جنسهم أو لونهم أو طبقتهم، بل إن نسبة كبيرة جدّاً من حملة العلم وأساطينه كانوا من الموالي.

وقد عقد ابن خلدون في مقدمته فصلاً لبيان أن حملة

---

(١) رواه البخاري (٦٥)، ومسلم (٢٠٩٢).

(٢) انظر د. عبد الحميد مدكور: في الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر، ص٤١ ـ ٤٦.

العلم في الإسلام أكثرهم العجم، وأبدى تعجبه من «أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم، وليس في العرب حملة علم، لا في العلوم الشرعية، ولا في العلوم العقلية، إلا في القليل النادر. وإن كان منهم العربي في نسبه، فهو أعجمي في لغته، ومرباه، ومشيخته، مع أن الملة عربية، وصاحب شريعتها عربي»(١).

وثمة عدد من النصوص الشرعية الدالة على عدم اختصاص العلم ـ أو الفضل ـ عموماً في الإسلام بطبقة دون أخرى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال النبي ﷺ: «**فيكم كتاب الله يتعلمه الأسود، والأحمر والأبيض، تعلموه قبل أن يأتي زمان يتعلمه ناس، ولا يجاوز تراقيهم ويقومونه كما يقوم السهم، فيتعجلون أجره، ولا يتأجلونه**»(٢).

وفي خطبته ﷺ في وسط أيام التشريق بحجة الوداع قال: «**يا أيها الناس! ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا**

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص٥٤٣، وهناك رأي مضاد لرأي ابن خلدون هذا ذهب إليه بعض الدارسين، فانظر: كتاب «عروبة العلماء» للأستاذ ناجي معروف، وانظر أيضاً: د. عبد الحميد مدكور: دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي، ص٥٦، دار الهاني، ١٩٩٣م.

(٢) رواه أحمد (٢٢٣٨٥)، وحسنه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى»[١].

وقال ﷺ: «**ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيِّه، وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها، فله أجران**»[٢].

وعن أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ، فأنزلت عليه سورة الجمعة: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ [الجمعة: ٣] قال: قلت من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعه حتى سأل ثلاثاً، وفينا سلمان الفارسي، وضع رسول الله ﷺ يده على سلمان، ثم قال: «**لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال، أو رجل من هؤلاء**»[٣].

وإضافة لهذه النصوص النظرية، فثمة مواقف عملية وتطبيقية أخرى ومنها أن النبي ﷺ اتخذ بلالاً الحبشي مؤذناً له، لنداوة صوته، كذلك أثنى ﷺ على سالم مولى أبي حذيفة، فقال: «**استقرئوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود ـ فبدأ به ـ وسالم مولى أبي حذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل**»[٤].

---

(١) رواه أحمد (٢٢٩٧٨)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

(٢) رواه البخاري (٩٧)، ومسلم (١٥٤).

(٣) رواه البخاري (٤٨٩٨)، ومسلم (٢٥٤٦).

(٤) رواه البخاري (٣٧٥٨)، ومسلم (٢٤٦٤).

وقد احتذى الصحابة بهدي نبيهم ﷺ في هذا الأمر، ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر قال: لما قدم المهاجرون الأولون العصبة موضع بقباء، قبل مقدم رسول الله ﷺ، كان يؤمهم سالم مولى أبي حذيفة، وكان أكثرهم قرآنا، وكان في القوم: أبو بكر وعمر، وأبو سلمة، وزيد، وعامر بن ربيعة»[(١)].

ولما طعن عمر رضي الله عنه، وكان مستنداً إلى ابن عباس، وعنده ابن عمر، وسعيد بن زيد رضي الله عنهما فقال: «اعلموا أني لم أقل في الكلالة شيئاً، ولم أستخلف من بعدي أحداً، وأنه من أدرك وفاتي من سبي العرب فهو حر من مال الله عز وجل، فقال سعيد بن زيد: أما إنك لو أشرت برجل من المسلمين لأتمنك الناس، وقد فعل ذلك أبو بكر رضي الله عنه وأتمنه الناس، فقال عمر رضي الله عنه: قد رأيت من أصحابي حرصاً سيئاً، وإني جاعل هذا الأمر إلى هؤلاء النفر الستة، الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، ثم قال عمر رضي الله عنه: لو أدركني أحد رجلين، ثم جعلت هذا الأمر إليه لوثقت به: سالم مولى أبي حذيفة، وأبو عبيدة بن الجراح»[(٢)].

وفي «صحيح مسلم» أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعسفان، وكان عمر رضي الله عنه استعمله على مكة، فقال له عمر رضي الله عنه: من استخلفت على أهل الوادي؟ قال:

---

(١) رواه البخاري (٦٩٢).

(٢) رواه أحمد (١٣٠)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح

استخلفت عليهم ابن أبزى، قال: وما ابن أبزى؟ فقال: رجل من موالينا، فقال عمر ﵁: استخلفت عليهم مولى؟ فقال: إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض، قاض، فقال عمر ﵁: أما إن نبيِّكم ﷺ قد قال: «**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضع به آخرين**»[(١)].

وقد بوب البخاري في «صحيحه» باباً عنوانه «باب إمامة العبد والمولى» واحتج فيه على صحة ذلك بحديث: «**يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله**»[(٢)]. وذكر أيضاً أن عائشة كان يؤمّها عبدها ذكوان من المصحف[(٣)].

وفي عصر التابعين بزغ نجم عدد من الموالي، الذين اشتهروا بالعلم الراسخ حتى صاروا أئمة في التفسير والحديث والفقه، يؤمهم طلاب العلم من كل مكان ويستفتيهم الخلق فيما أشكل عليهم من أمر دينهم، ومن هؤلاء نافع مولى ابن عمر، ومجاهد بن جبر مولى السائب بن أبي السائب المخزومي، والحسن البصري مولى زيد بن ثابت الأنصاري، ومحمد بن سيرين مولى أنس بن مالك، وعكرمة مولى ابن عباس.

ومنهم أيضاً التابعي الجليل عطاء بن أبي رباح كان «عبداً أسود لامرأة من أهل مكة، وكان أنفه كأنه باقلاة قال: وجاء

(١) رواه مسلم (٨١٧).
(٢) رواه البخاري تعليقاً، ومسلم (٦٧٣).
(٣) انظر: صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب إمامة العبد والمولى.

سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى عطاء هو وابناه، فجلسوا إليه وهو يصلي، فلما صلى انفتل إليهم فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج، وقد حول قفاه إليهم، ثم قال سليمان لابنيه: «قوما»، فقاما، فقال: «يا بني لا تنيا في طلب العلم، فإني لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود»[(١)].

وهكذا لم تكن دمامة الشكل، أو عيوب البدن مانعة من التعلم في المجتمع المسلم أو تولي أرفع المناصب كالقضاء طالما حصل صاحبها علماً وأهلية لتولي منصبه هذا.

وقد حكي عن محمد بن عبد الرحمٰن الأوقص المتوفى (١٩٩هـ) أن عنقه كان داخلاً في يده وكان منكباه خارجين كأنهما زجان[(٢)]، فقالت له أمه يا بني: لا تكون في قوم إلا كنت المضحوك منه، المسخور به، فعليك بطلب العلم فإنه يرفعك، فطلب العلم، وولي قضاء مكة عشرين سنة، فكان الخصم إذا جلس بين يديه يرعد حتى يقوم[(٣)].

٣٠ ـ مجانية التعليم، وبذله لطالبيه دون مقابل:

فتلقي العلم في الإسلام كان منذ أول أمره مجانياً دون مقابل، بحيث لا يحال بين طالب علم فقير، وبين تحصيل

---

(١) الخطيب البغدادي: الفقيه والمتفقه ١/ ١٤٠.

(٢) والزج بالضم هو: الحديدة في أسفل الرمح، انظر: مختار الصحاح، مادة: (زجج)، ص١٣٤.

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٥٤/ ١٠٦، والخطيب البغدادي: الفقيه والمتفقه ١/ ١٤٠، ١٤١.

العلم، بل إن العكس هو الصحيح، إذ إن غالبية علماء الإسلام على مر العصور كانوا من الفقراء أو متوسطي الحال، ولم يكن منهم ـ سوى قلة قليلة ـ أحد من ذوي اليسار والثروة الطائلة.

وقد تضمنت دعوات سائر الرسل التأكيد على أنهم لا يسألون قومهم مالاً أو أجراً، فقال أكثر من نبي: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾ [هود: ٥١] كذلك ورد التحذير من أن يشتري الإنسان بآيات الله ثمنا قليلا، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ٤١﴾ [البقرة: ٤١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ﴾ [المائدة: ٤٤].

وثبت عن النبي ﷺ أنه نهي أن يأخذ الإنسان على تعليمه القرآن أجراً[١]، فعن عبادة بن الصامت قال: علمت ناساً من أهل الصفة القرآن، فأهدى إلي رجل منهم قوساً، فقلت: ليست بمال، وأرمي عنها في سبيل الله ﷿، لآتين رسول الله ﷺ فلأسألنه، فأتيته فقلت: يا رسول الله رجل أهدى إلي قوساً ممن كنت أعلمه الكتاب والقرآن وليست بمال، وأرمي عنها في سبيل الله؟ فقال: «**إن كنت تحب أن تطوق طوقاً من نار فاقبلها**»[٢].

---

(١) وثمة خلاف فقهي مطول حول حكم أخذ الأجرة على تعليم القرآن أو العلم عموماً، لا مجال لذكره هنا تفصيلاً، وانظر في بيان ذلك: ابن قدامة: المغني ٣/ ١٨٥، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١/ ٣٣٥.

(٢) رواه أبو داود (٣٤١٦)، وابن ماجه (٢١٥٧)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

وقال ﷺ: «**من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة**»؛ يعني: ريحها[(١)].

وقد امتثل أهل العلم الصادقون على مر العصور لهذا التوجيه النبوي، فبذلوا العلم مجاناً لكل من يطلبه، وامتنع أكثرهم عن أخذ الأجرة على التعليم أو التحديث ـ إلا لضرورة ـ وكان شعارهم هو «يا ابن آدم علم مجاناً، كما علمت مجاناً»[(٢)]، كما نقل عن الكثيرين منهم مواقف يضرب بها المثل في الاستعفاف، والترفع عن قبول عطايا الولاة أو الأغنياء.

ولعل الإمام أحمد ابن حنبل من أبرز من يمثل بسيرته في هذا الجانب حيث حكي عنه أنه مكث مرة ثلاثة أيام لا يجد ما يأكله، حتى بعث إلى بعض أصحابه فاستقرض منه دقيقاً، فعرف أهله حاجته إلى الطعام، فعجلوا وعجنوا وخبزوا له سريعاً، فقال: ما هذه العجلة! كيف خبزتم؟ فقالوا: وجدنا تنور بيت صالح مسجوراً، فخبزنا لك فيه، فقال: ارفعوا، ولم يأكل وأمر بسد بابه إلى دار صالح؛ لأنه أخذ جائزة السلطان، وهو المتوكل على الله.

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٢) انظر: ابن جرير الطبري: جامع البيان ١/ ٣٦١، وابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٨٩، والخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية، ص١٨٥، والمتقي الهندي: كنز العمال ١٠/ ٢٤٢.

كذلك حكى ابنه عبد الله أنهم كانوا في زمن الواثق في ضيق شديد فكتب رجل إلى أبي: إن عندي أربعة آلاف درهم ورثتها من أبي، وليست صدقة ولا زكاة، فإن رأيت أن تقبلها، فامتنع من ذلك، وكرر عليه فأبى فلما كان بعد حين ذكرنا ذلك، فقال أبي: لو كنا قبلناها كانت ذهبت وأكلناها، وعرض عليه بعض التجار عشرة آلاف درهم ربحها من بضاعة جعلها باسمه، فأبى أن يقبلها، وقال: نحن في كفاية، وجزاك الله عن قصدك خيراً[(١)].

٣١ ـ تعليم النساء:

ومع أن النساء يدخلن في عموم المكلفين، المخاطبين بضرورة طلب العلم وتحصيله، إلا أننا أردنا أن نفرد الكلام عن هذه المسألة بنقطة مستقلة، كي نزيل بعض الأوهام والأخطاء، التي شاعت لدى الكثيرين، سواء أكانوا من أعداء الإسلام الحاقدين، أو من أبنائه الجاهلين، حول تعليم المرأة العلم النافع المفيد من جهة، والمناسب لطبيعتها وخصائصها ودورها من جهة أخرى.

ونبدأ أولاً فنشير إلى أنه لا يوجد في نصوص الكتاب والسُّنَّة، الآمرة بطلب العلم، والمادحة لأصحابه أي دلالة على تخصيص ذلك بالرجال وحدهم دون النساء، وإنما القاعدة

(١) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٣٦٢، والذهبي: سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١٤.

العامة في الشريعة هي عموم التكليف، وعدم التفرقة بين الرجال والنساء في حكم ما إلا بدليل معتبر، ويشهد لذلك قوله ﷺ: «**إنما النساء شقائق الرجال**»[(١)].

ولا شك لدى كل منصف أن الإسلام قد سبق غيره بقرون عديدة في إعطاء المرأة الحق في التعليم، وفي الوقت الذي كانت فيه أوروبا النصرانية تتساءل هل للمرأة روح مثل الرجل، كان النبي ﷺ يبايع النساء مثل مبايعته للرجل، ويفسح لهن المجال أن يسألن كيف شئن حتى في أدق الأمور الخاصة بهن[(٢)]، حتى إن إحداهن لتسأله كيف تتطهر من حيضتها[(٣)]، وتسأله الأخرى: هل على المرأة غسل إذا احتلمت[(٤)]، ولم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين[(٥)].

ولابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام مهم يجدر بنا أن نسوقه هنا حول حكم تعلم النساء للعلم، انتهى فيه إلى وجوب النفار على النساء للتفقه في الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثلهن في ذلك مثل الرجال، ثم بنى على ذلك أنه يجب «على

---

(١) رواه أبو داود (٢٣٦)، والترمذي (١١٣)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود.

(٢) انظر: د. محمد بلتاجي: بحوث مختارة في السُّنَّة ص٢٢٧.

(٣) رواه البخاري (٣١٤)، ومسلم (٣٣٢).

(٤) رواه البخاري (١٣٠)، ومسلم (٣١٣).

(٥) وقد وصفت عائشة نساء الأنصار فقالت: «نِعْم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين». انظر: صحيح البخاري كتاب العلم، باب الحياء في العلم ورواه مسلم (٣٣٢).

ذات المال منهن معرفة أحكام الزكاة، وفرض عليهن كلهن معرفة أحكام الطهارة، والصلاة، والصوم، وما يحل وما يحرم من المآكل، والمشارب، والملابس، وغير ذلك، كالرجال ولا فرق، ولو تفقهت امرأة في علوم الديانة للزمنا قبول نذارتها، وقد كان ذلك، فهؤلاء أزواج النبي ﷺ وصواحبه قد نقل عنهن أحكام الدين وقامت الحجة بنقلهن، ولا خلاف بين أصحابنا وجميع أهل نحلتنا في ذلك، فمنهن سوى أزواجه عليه السلام: أم سليم، وأم حرام، وأم عطية، وأم كرز، وأم شريك، وأم الدرداء، وأم خالد، وأسماء بنت أبي بكر، وفاطمة بنت قيس، ويسرة، وغيرهن، ثم في التابعين: عمرة، وأم الحسن والرباب، وفاطمة بنت المنذر، وهند الفراسية، وحبيبة بنت ميسرة، وحفصة بنت سيرين، وغيرهن»[1].

وقد عضد القاعدة السابقة ـ والمتعلقة بالتسوية بين الرجال والنساء في طلب العلم ـ سيرة النبي ﷺ القولية والعملية، حيث كان مهتماً بعظة النساء وتعليمهن، وحرص على عدم منعهن من المجيء إلى المساجد إذا أرادت الواحدة منهن ذلك، فقال ﷺ: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**»[2]، وفي يوم العيد على وجه الخصوص أمر ﷺ بإخراج سائر

(١) ابن حزم: الإحكام ٣/ ٣٣٧، ٣٣٨.
(٢) رواه البخاري (٩٠٠)، ومسلم (٤٤٢).

النساء، حتى الحيض، وكان يخص النساء بعظة خاصة في هذا اليوم(١).

وفيما يخص نساءه ﷺ، فقد طلب من امرأة اسمها الشِّفَاءِ بِنْتِ عَبْدِ اللهِ أن تعلم حفصة رضي الله عنها رقية النملة كما علمتها الكتابة، ففي «المسند» و«سنن أبي داود» عن الشِّفَاءِ بِنْتِ عَبْدِ اللهِ قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ، وَأَنَا عِنْدَ حَفْصَةَ فَقَالَ لِي: «**أَلَا تُعَلِّمِينَ هَذِهِ رُقْيَةَ النَّمْلَةِ كَمَا عَلَّمْتِيهَا الْكِتَابَةَ**»(٢).

كذلك يعد تعليم الرجل امرأته نوعاً من الرعاية التي سوف يسأله الله عنها، وفي الحديث قال النبي ﷺ: «**وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»(٣). وقد أمر الله المؤمنين أن يقوا أنفسهم وأهليهم ناراً وقودها الناس والحجارة، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] ولا شك أن العلم من أول ما تتحقق به تلك الوقاية.

وحينما أتى وفد من عبد القيس إلى النبي ﷺ أوصاهم بتعليم أهليهم، فعن مالك بن الحويرث: أَتَيْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ يَوْماً وَلَيْلَةً، وَكَانَ

(١) رواه البخاري (٩٨)، ومسلم (٨٨٥).
(٢) رواه أحمد (٢٧٦٨٤)، وأبو داود (٣٨٨٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.
(٣) رواه البخاري (٢٧٥١)، ومسلم (١٨٢٩).

رَسُولُ اللهِ ﷺ رَحِيماً رَفِيقاً، فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّا قَدِ اشْتَهَيْنَا أَهْلَنَا، أَوْ قَدِ اشْتَقْنَا، سَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا بَعْدَنَا فَأَخْبَرْنَاهُ، قَالَ: «**ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ، فَأَقِيمُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ**»[(١)].

ولما شعرت النساء أن الرجال قد استأثروا بالنصيب الأكبر من تلقي العلم عن رسول الله، وأنهن قد غُلبن في هذا الجانب، طلبن من الرسول أن يخصص لهن يوماً مستقلّاً، وسرعان ما استجاب النبي ﷺ لهن، ففي «الصحيح» من حديث أبي سعيد الخدري أن النساء قالت للنبي ﷺ: «غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهن يوماً لقيهن فيه، فوعظهن، وأمرهن»[(٢)].

كذلك كان صدر النبي ﷺ فسيحاً لتلقي أسئلة النساء واستفساراتهن عن أمور دينهن، بل إن ذلك كان موضعاً لمدح نساء الأنصار، كما قالت عائشة: «نِعْمَ النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين»[(٣)].

ولم يقتصر الحث على تعليم النساء على الحرائر فقط، بل امتد أيضاً إلى الإماء، فقال الرسول ﷺ: «**ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: وذكر منهم الرجل تكون له الأمة، فيعلمها فيحسن تعليمها، ويؤدبها فيحسن أدبها، ثم يعتقها فيتزوجها،**

(١) رواه البخاري (٦٣١)، ومسلم (٦٧٤).
(٢) رواه البخاري (١٠٢)، ومسلم (٢٦٣٤).
(٣) رواه البخاري ومسلم (٣٣٢).

فله أجران»(١).

وأوصى النبي ﷺ من كان له بنات بحسن تربيتهن، وتعليمهن حتى يبلغن، وجعل ثواب ذلك الجنة فقال: «**من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو، وضم أصابعه**»(٢). وفي رواية أخرى: «**من كان له ثلاث بنات فصبر عليهن، وأطعمهن، وسقاهن وكساهن من جدته كن له حجاباً من النار يوم القيامة**»(٣).

ومن أبرز نماذج النسوة الفقيهات العالمات: أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، والتي كانت حريصة على العلم أشد الحرص، وكانت ذات فقه واسع وعقل راجح، ولسان سؤول، وكثيراً ما راجعت الرسول فيما لم تفهمه وكذا راجعت كثيراً من الصحابة، واستدركت عليهن(٤).

وفي «الصحيحين» عن ابن أبي مليكة أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي ﷺ قال: «**من حوسب عُذِّب**»، قالت عائشة فقلت: أو ليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾

---

(١) رواه البخاري (٩٧)، ومسلم (١٥٤).

(٢) رواه مسلم (٢٦٣١).

(٣) رواه أحمد (١٦٩٥٠)، وابن ماجه (٣٦٦٩)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

(٤) وللزركشي كتاب مفرد اسمه «الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة».

[الانشقاق: ٨] قالت فقال: «**إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب يهلك**»[(١)].

وقد توالت عبارات الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم في الثناء على علم عائشة رضي الله عنها، وبيان سعته، ورجوع الناس إليه عند المشكلات[(٢)] فعن أبي موسى الأشعري قال: ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها فيه علماً، وقال الزهري: لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أمهات المؤمنين وعلم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل، وقال مسروق رأيت مشيخة الصحابة يسألونها عن الفرائض، وقال عطاء بن أبى رباح: كانت عائشة أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأياً في العامة، وقال الذهبي رحمه الله: «ولا أعلم في أمه محمد صلى الله عليه وسلم، بل ولا في النساء مطلقاً أمرأة أعلم منها»[(٣)].

ولن نستطيع أن نسترسل أكثر من ذلك في هذه القضية، والتي تحتاج لبحوث مستقلة، ويكفي أن نشير إلى أن تاريخ الأمة قد شهد الكثير من نماذج النساء العالمات المتخصصات في مجال أو أكثر من مجالات العلوم الشرعية[(٤)]، وهناك عدد

(١) رواه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦).
(٢) انظر نماذج من تلك الأقوال عند المزي: تهذيب الكمال ٣٥/ ٢٣٥، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٢/ ١٨٥، وابن كثير: البداية والنهاية ٨/ ٩٩، وابن حجر: الإصابة ٨/ ٢٣٣، وتهذيب التهذيب ١٢/ ٣٨٦.
(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢/ ١٤٠.
(٤) وثمة شهادة لافتة للنظر فيما يتعلق بالنساء الروايات للحديث، ذكرها =

غير قليل من الدراسات، التي عنيت برصد تلك الظاهرة[١].

٣٢ ـ تعليم الصغار من الأطفال والفتيان:

وقد حث النبي ﷺ على تعليم الصغار وتأديبيهم وتوجيههم، فالأب راع، والأم راعية وكل منهما مسئول عن رعيته، كما قال ﷺ: «**وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا**»[٢]، وإذا بلغ الصغير سبع سنين فعلى وليه أن يعلمه الصلاة ويأمره بأدائها، فإذا بلغ عشراً ضربه على تركها، كما قال ﷺ: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ سِنِينَ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ**»[٣].

= الذهبي في ميزان الاعتدال ٤/ ٦٠٥، فقال: «وما علمت في النساء من اتهمت ولا من تركوها».

(١) وهناك نماذج كثيرة جدّاً يمكن الرجوع إليها في كتاب عمر رضا كحالة: أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام بمجلداته الخمسة، وانظر أيضاً: د. محمد إسماعيل المقدم: عودة الحجاب، القسم الثاني، ص٥٦٥ ـ ٥٩٩، الطبعة الثامنة، ١٤١٤هـ، ود. سيد حسين: صلاح الأمة في علو الهمة ٧/ ١٦١، ود. صالح يوسف معتوق: جهود المرأة في رواية الحديث في القرن الثامن الهجري، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧ م، وآمال قرداش بنت الحسين: دور المرأة في خدمة الحديث في القرون الثلاثة الأولى، سلسلة كتاب الأمة، العدد السبعون.

(٢) رواه البخاري (٢٧٥١)، ومسلم (١٨٢٩).

(٣) رواه أبو داود (٤٩٥)، وقال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح.

وقد جمع النبي ﷺ في تعليمه وتوجيهه للصغار من الأطفال والفتيان بين القول والفعل، فعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: أَخَذَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رضي الله عنهما تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ، فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**كِخْ كِخْ**». لِيَطْرَحَهَا، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَا شَعَرْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ**»[1].

وعن عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ يَقُولُ: كُنْتُ غُلَاماً فِي حِجْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا غُلَامُ، سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ. فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ**»[2].

وقد أردف النبي ﷺ ابن عباس على الدابة وهو غلام، وأوصاه بتلك الوصية العظيمة فَقَالَ: «**يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ؛ احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»[3].

---

(١) رواه البخاري (١٤٩١)، ومسلم (١٠٦٩).

(٢) رواه البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢).

(٣) رواه أحمد (٢٦٩٥)، والترمذي (٢٧٢١)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: إِنَّ فَتًى شَابّاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ وَقَالُوا: مَهْ مَهْ، فَقَالَ: «**ادْنُهْ**» فَدَنَا مِنْهُ قَرِيباً قَالَ: فَجَلَسَ قَالَ: «**أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ، قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ**» قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ**» قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ، قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ**» قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ، قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ**» قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ، قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ**» قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ**» قَالَ: فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ(١).

وقد شمل اهتمام النبي ﷺ بدعوة الصغار والغلمان وتعليمهم: المسلمين وغير المسلمين، فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «**أَسْلِمْ**». فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ**»(٢).

---

(١) رواه أحمد (٢٢٦٤١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٧١٢).

(٢) رواه البخاري (١٣٥٦).

وليس صغر السن أو حداثته مانعاً من تقديم المتميزين والأكفاء من الأطفال والغلمان مهما كان سنهم، طالموا كانوا أفضل الموجودين في القيام بتكليف ما.

ومن الأدلة على ذلك قصة أبي محذورة وهو فتى حديث السن حيث قال: خَرَجْتُ فِي نَفَرٍ فَكُنَّا بِبَعْضِ طَرِيقِ حُنَيْنٍ، فَقَفَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ حُنَيْنٍ فَلَقِيَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالصَّلَاةِ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَمِعْنَا صَوْتَ الْمُؤَذِّنِ وَنَحْنُ مُتَنَكِّبُونَ، فَصَرَخْنَا نَحْكِيهِ وَنَسْتَهْزِئُ بِهِ، فَسَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الصَّوْتَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا إِلَى أَنْ وَقَفْنَا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيُّكُمُ الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ قَدِ ارْتَفَعَ؟**» فَأَشَارَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ إِلَيَّ وَصَدَقُوا، فَأَرْسَلَ كُلَّهُمْ وَحَبَسَنِي، فَقَالَ: «**قُمْ فَأَذِّنْ بِالصَّلَاةِ**»، فَقُمْتُ وَلَا شَيْءَ أَكْرَهُ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَا مِمَّا يَأْمُرُنِي بِهِ، فَقُمْتُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَلْقَى إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ التَّأْذِينَ هُوَ نَفْسُهُ، .... ثُمَّ دَعَانِي حِينَ قَضَيْتُ التَّأْذِينَ، فَأَعْطَانِي صُرَّةً فِيهَا شَيْءٌ مِنْ فِضَّةٍ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى نَاصِيَةِ أَبِي مَحْذُورَةَ، ثُمَّ أَمَارَّهَا عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ مَرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ عَلَى كَبِدِهِ، ثُمَّ بَلَغَتْ يَدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ سُرَّةَ أَبِي مَحْذُورَةَ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَارَكَ اللهُ فِيكَ**»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مُرْنِي بِالتَّأْذِينِ بِمَكَّةَ، فَقَالَ: قَدْ أَمَرْتُكَ بِهِ، وَذَهَبَ كُلُّ شَيْءٍ كَانَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ

كَرَاهِيَةٍ، وَعَادَ ذَلِكَ مَحَبَّةً لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَدِمْتُ عَلَى عَتَّابِ بْنِ أَسِيدٍ عَامِلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ فَأَذَّنْتُ مَعَهُ بِالصَّلَاةِ عَنْ أَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ(١).

وعَنْ عَمْرِو بْنِ سَلِمَةَ قَالَ: كُنَّا بِمَاءٍ مَمَرَّ النَّاسِ، وَكَانَ يَمُرُّ بِنَا الرُّكْبَانُ فَنَسْأَلُهُمْ: مَا لِلنَّاسِ، مَا لِلنَّاسِ؟ مَا هَذَا الرَّجُلُ؟ فَيَقُولُونَ: يَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ، أَوْحَى إِلَيْهِ. أَوْ: أَوْحَى اللهُ بِكَذَا، فَكُنْتُ أَحْفَظُ ذَلِكَ الْكَلَامَ، وَكَأَنَّمَا يُغْرَى فِي صَدْرِي، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَلَوَّمُ بِإِسْلَامِهِمُ الْفَتْحَ، فَيَقُولُونَ: اتْرُكُوهُ وَقَوْمَهُ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ نَبِيٌّ صَادِقٌ، فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ أَهْلِ الْفَتْحِ، بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلَامِهِمْ، وَبَدَرَ أَبِي قَوْمِي بِإِسْلَامِهِمْ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: جِئْتُكُمْ وَاللهِ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ حَقّاً، فَقَالَ: صَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا، وَصَلُّوا كَذَا فِي حِينِ كَذَا، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ أَحَدُكُمْ، وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْثَرُكُمْ قُرْآناً. فَنَظَرُوا فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَكْثَرَ قُرْآناً مِنِّي، لِمَا كُنْتُ أَتَلَقَّى مِنَ الرُّكْبَانِ، فَقَدَّمُونِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَأَنَا ابْنُ سِتٍّ أَوْ سَبْعِ سِنِينَ، وَكَانَتْ عَلَيَّ بُرْدَةٌ، كُنْتُ إِذَا سَجَدْتُ تَقَلَّصَتْ عَنِّي، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْحَيِّ: أَلَا تُغَطُّوا عَنَّا اسْتَ قَارِئِكُمْ؟ فَاشْتَرَوْا فَقَطَعُوا لِي قَمِيصاً، فَمَا فَرِحْتُ بِشَيْءٍ فَرَحِي بِذَلِكَ الْقَمِيصِ(٢).

---

(١) روا أحمد (١٥٦١٦)، وصحح أحمد شاكر إسناده في عمدة التفسير (١/ ٧٠٣).
(٢) رواه البخاري (٤٣٠٢).

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن عدداً من فقهاء المسلمين قد نصوا على وجوب تعليم الآباء، والأمهات لأولادهم الصغار ما سيتعين عليهم بعد البلوغ، فيعلمه الولي الطهارة، والصلاة، والصوم، ونحوها، ويعرفه تحريم الزنا، واللواط، والسرقة، وشرب المسكر، والكذب، والغيبة، وشبهها، ويعرفه أن بالبلوغ يدخل في التكليف، ويعرفه ما يبلغ به، وقد جعلوا أجرة هذا التعليم في مال الصبي، فإن لم يكن له مال فعلى من تلزمه نفقته[١].

٣٣ ـ مراعاة نفسية المتعلمين:

ولا شك أن مراعاة هذا الأمر له أثر كبير في حسن تلقي المتعلمين للعلم وأخذهم له، فالمتعلم هو في النهاية واحد من البشر له احتياجات شتى، منها النفسي ومنها المادي، ولا يتصور منه فهم ولا حفظ ولا ازدياد في العلم إذا كان مشوش البال، مضطرب الحال، واقعاً تحت ضغوط نفسية فوق الاحتمال المعتاد.

وفي السُّنَّة النبوية إشارات مهمة لهذا الأمر، منها أنه ﷺ كان يراعي الاحتياجات النفسية والعائلية للشباب وصغار السن ممن رحلوا لطلب العلم، فعن مَالِكِ بْنِ الْحُوَيْرِثِ قَالَ: أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً، فَظَنَّ أَنَّا اشْتَقْنَا أَهْلَنَا، وَسَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا فِي أَهْلِنَا فَأَخْبَرْنَاهُ، وَكَانَ

(١) النووي: المجموع ١/ ٢٦.

رَفِيقاً رَحِيماً، فَقَالَ: «ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ فَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي، وَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، ثُمَّ لِيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ»[١].

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الْأَيَّامِ؛ كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا»[٢]. ومعنى ذلك كما قال الحافظ في الفتح أنه ﷺ: «كان يراعي الأوقات في تذكيرنا، ولا يفعل ذلك كل يوم لئلا نمل»[٣].

وإذا كان النبي ﷺ وهو من يتمنى الصحابة لقاءه كل وقت والتشرف برؤيته وسماع كلامه الذي لا ينطق به عن الهوى ـ يخشى أن يمل الناس بالموعظة فكيف بمن هم دونه من سائر المعلمين، ويتأكد الأمر إذا علمنا أن الملل من طبيعة النفس البشرية، وأن كثرة الكلام ينسي بعضه بعضاً، والمهم من ذلك كله مراعاة المعلم أو الأستاذ لأحوال طلابه النفسية[٤]، وعدم تحميلهم ما لا يطيقون.

٣٤ ـ مراعاة عقليات المتلقين، سواء في الأقوال أو التصرفات والأفعال:

ولا شك أن هناك فروقاً، واختلافات، وتفاوتاً كبيراً بين

(١) رواه البخاري (٦٣١)، ومسلم (٦٧٤).
(٢) رواه البخاري (٦٨)، ومسلم (٢٨٢١).
(٣) ابن حجر: فتح الباري ١/ ١٩٥.
(٤) انظر: د. سعيد إسماعيل علي: السُّنَّة رؤية تربوية، ص٢٥٧.

الناس في قدراتهم العقلية المتنوعة من التعلم، والتذكر، والتحليل، والتركيب، وغيرها من الوظائف العقلية[١]، وقد ورد في السُّنَّة ما يدل على اختلاف الطبيعة الإنسانية عموماً، واختلاف القدرات العقلية على وجه الخصوص.

ومن الأدلة على اختلاف الطبيعة الإنسانية نفسها: قول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ، مِنْهُمُ الْأَحْمَرُ، وَالْأَسْوَدُ، وَالْأَبْيَضُ، وَالْأَصْفَرُ، وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ**»[٢].

أما تفاوت القدرات العقلية فهماً وحفظاً واستنباطاً، فمن الأدلة عليها قول النبي ﷺ: «**فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَإِنَّهُ رُبَّ مُبَلِّغٍ يُبَلِّغُهُ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ**»[٣]، وقوله ﷺ: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثاً فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ**»[٤].

كذلك قسم النبي ﷺ الناس في تلقيهم للعلم وفهمه

(١) انظر: أماني بنت محمد قليوبي: التربية العقلية في السُّنَّة النبوية وتطبيقاتها التربوية في المرحلة الابتدائية، ص١٢١.
(٢) رواه أحمد (١٩٨٩١)، وأبو داود (٤٦٩٣)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.
(٣) رواه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩).
(٤) رواه أبو داود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦)، وصححه الألباني في صحيح؛ أي: داود والترمذي.

وتعليمه إلى أقسام فقال: «**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضاً، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ، لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْساً، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ**»[١].

وإذا كانت القدرات العقلية تتفاوت بين الأفراد فمن اللازم أن يتوجه الخطاب لكل فئة بما يتناسب مع مستوى فهمها وإدراكها[٢]، وفي السُّنَّة النبوية إشارات عدة إلى أهمية المراعاة لعقلية المتلقين، سواء في جانب الأقوال التي تبلغ لهم، أو الأفعال والتصرفات التي تجري في محيطهم.

وقد بوب البخاري في «صحيحه» باباً بعنوان «مَنْ خَصَّ بِالْعِلْمِ قَوْماً دُونَ قَوْمٍ كَرَاهِيَةَ أَنْ لَا يَفْهَمُوا». وأورد فيه حديث أنس بن مَالِكٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَمُعَاذٌ رَدِيفُهُ عَلَى الرَّحْلِ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ**. قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ. قَالَ: **يَا مُعَاذُ**. قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، ثَلَاثاً. قَالَ: **مَا مِنْ**

(١) رواه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

(٢) انظر: أماني بنت محمد قليوبي: التربية العقلية في السُّنَّة النبوية، ص١٢٢.

أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ صِدْقاً مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ. قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا أُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا؟ قَالَ: **إِذاً يَتَّكِلُوا.** وَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّماً»[(١)].

وللصحابة اقتداء بهذا الهدي النبوي الحكيم، فعن علي بن أبي طالب أنه قال: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟»[(٢)]. وقال عبد الله بن مسعود: «مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْماً حَدِيثاً لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً»[(٣)]. وقال أبو هريرة: «حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وِعَاءَيْنِ: فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ»[(٤)].

أما مراعاة عقول المخاطبين على مستوى الأفعال والتصرفات، فمما يدل عليها قول النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «**لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ أَوْ قَالَ: بِكُفْرٍ لَأَنْفَقْتُ كَنْزَ الْكَعْبَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَجَعَلْتُ بَابَهَا بِالْأَرْضِ، وَلَأَدْخَلْتُ فِيهَا مِنَ الْحِجْرِ**»[(٥)].

ولما أشار عمر رضي الله عنه على النبي ﷺ أن يقتل بعض

(١) رواه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢).
(٢) رواه البخاري (١٢٧).
(٣) رواه مسلم في مقدمة صحيحه (٥).
(٤) رواه البخاري (١٢٠).
(٥) رواه البخاري (١٢٦)، ومسلم (١٣٣٣).

المنافقين قال ﷺ: «**لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»[(١)]. كذلك حينما جاءت صفية زَوْج النَّبِيِّ ﷺ تَزُورُهُ فِي اعْتِكَافِهِ فِي الْمَسْجِدِ، فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً، ثُمَّ قَامَتْ تَنْقَلِبُ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَهَا يَقْلِبُهَا، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بَابَ الْمَسْجِدِ عِنْدَ بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ، مَرَّ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ: «**عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ**، فَقَالَا: سُبْحَانَ اللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنَ الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئاً**»[(٢)].

٣٥ ـ تربية الروح النقدية المتسائلة:

ونعني بذلك أن النبي ﷺ كان يربي أصحابه على الفهم والتدبر لما يسمعون، وعدم التصديق بكل ما يقال، أو تحديث الإنسان بكل ما يسمع، ومما يدل على ذلك قوله ﷺ: «**بئس مطية الرجل زعموا**»[(٣)]، وقوله ﷺ: «**كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع**»[(٤)].

(١) رواه البخاري (٣٥١٨)، ومسلم (٢٥٨٤).
(٢) رواه البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم (٢١٧٥).
(٣) رواه أحمد (١٦٦٢٧)، وأبو داود (٤٩٧٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٦٦).
(٤) رواه مسلم (٥)، وأبو داود (٤٩٩٢).

كذلك ربى النبي ﷺ أصحابه على أن يسألوا إذ لم يفهموا أو يتبينوا، فقال ﷺ: «**ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال**»(١).

وصحيح أن هناك نصوصاً عدة يفهم منها النهي عن كثرة السؤال كقوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثاً: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ**»(٢)، وقوله ﷺ: «**ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ**»(٣). وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، الْعَاقِلُ، فَيَسْأَلَهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ»(٤).

لكن هذه النصوص تتنزل على ما كان مذموماً من الأسئلة، وهي أنواع عدة منها(٥): السؤال عما لا ينفع في الدين، أو أن يسأل بعد ما بلغ من العلم حاجته، أو أن يسأل عن صعاب المسائل وشرارها، أو أن يسأل عن علة الحكم، وهو من قبيل التعبدات التي لا يعقل لها معنى، ومن ذلك أيضاً سؤال التعنت والإفحام وطلب الغلبة في الخصام، أو أن يبلغ

(١) رواه أبو داود (٣٣٦)، وابن ماجه (٥٧٢).
(٢) رواه البخاري (١٣٣٧)، ومسلم (٧٢٢٨).
(٣) رواه البخاري (١٤٧٧)، ومسلم (٥٩٣).
(٤) رواه مسلم (١٢).
(٥) انظر: الشاطبي: الموافقات ٥/ ٣٨٧، تحقيق: مشهور سليمان.

بالسؤال إلى حد التكلف والتعمق، أو أن يظهر من السؤال معارضة الكتاب والسُّنَّة بالرأي.

أما ما سوى تلك النوعية من الأسئلة فقد كان النبي ﷺ رحب الصدر وواسعه، لتلقي أسئلة أصحابه(١)، طالما أنها كانت ذات نفع وفائدة، ولم تكن عن شيء لم ينزل فيه حكم شرعي، أو جدلاً ومراءاً مذموماً، أو سؤالاً عما هو خارج إدراك الإنسان(٢).

وثمة أدلة كثيرة من السُّنَّة النبوية تشهد لهذا الذي قررناه، ومن ذلك ما حكته أم المؤمنين عائشة زوج النبي ﷺ أنها كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي ﷺ قال: «**من حوسب عذب**»، قالت عائشة فقلت: أو ليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق: ٨] قالت فقال: «**إنما ذلك العرض ولكن من نوقش الحساب يهلك**»(٣).

ولم يقتصر طرح السؤال عند الاستشكال على عائشة رضي الله عنها، بل شاركها بعض أمهات المؤمنين الأخريات، ففي صحيح البخاري عن زينب بنت جحش أن رسول الله ﷺ دخل عليها

(١) انظر: د. سعيد إسماعيل علي: السُّنَّة النبوية رؤية تربوية، ص٤١٧.
(٢) وقد أورد ابن القيم في كتابه إعلام الموقعين ٤/٢٦٦ ـ ٤١٤، نماذج لعشرات الأسئلة التي سألها الصحابة، وأجاب عنها ﷺ في شتى أمور الدين وجوانبه.
(٣) رواه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦).

يوماً فزعاً يقول: «**لا إلٰه إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**»، وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش: فقلت يا رسول الله: أفنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم إذا كثر الخبث**»[١].

وعن أم مُبَشِّرٍ أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ: لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا. قَالَتْ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ! فَانْتَهَرَهَا، فَقَالَتْ حَفْصَةُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: قَدْ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ٧٢][٢].

ومن أدلة السُّنَّة الأخرى التي تشهد لهذا الأمر، وتوضح أن ذلك لم يكن مقصوراً على أمهات المؤمنين وحدهم، بل شمل غيرهم من الصحابة، أنه لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ** ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]»[٣].

كذلك ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**لا عدوى، ولا صفر، ولا**

(١) رواه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠).
(٢) رواه مسلم (٢٤٩٦).
(٣) رواه البخاري (٣٢)، ومسلم (١٢٤).

هامة»، فقال أعرابي يا رسول الله: فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء، فيخالطها البعير الأجرب فيجربها؟ فقال رسول الله ﷺ: «**فمن أعدى الأول**»(١).

وثبت أيضاً أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: ولد لي غلام أسود! فقال: «**هل لك من إبل؟** قال: نعم، قال: **ما ألوانها؟** قال: حمر، قال: **هل فيها من أورق؟** قال: نعم، قال: **فأنى ذلك؟** قال: لعله نزعه عرق، قال: **فلعل ابنك هذا نزعه**»(٢).

ويدخل في هذا الباب أيضاً ما عرف عنه ﷺ من الاعتماد على المحاورة، والمساءلة في التعليم(٣) من أجل إثارةِ انتباهِ السّامعين وتشويق نفوسِهم إلى الجواب، وحضِّهم على إعمال الفكر للجواب، وليكون جواب النبي ﷺ ـ إذا لم يستطيعوا الإجابة ـ أقرب إلى الفهم.

وربما سأل النبي ﷺ أصحابه عن الشيء وهو يعلمه، وإنما يسألُهم ليُثير فطنهم، ويحرك ذكاءهم، ويسقيهم العلم في

(١) رواه البخاري (٥٧١٧)، ومسلم (٢٢٢٠).
(٢) رواه البخاري (٥٣٠٥)، ومسلم (١٥٠٠).
(٣) وانظر عرضاً مهمّاً لموضوع التربية بالحوار أو السؤال في القرآن والسُّنَّة في كتاب: من أساليب التربية الإسلامية التربية بالحوار، لعبد الرحمٰن النحلاوي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ٢٠٠٠م، وانظر أيضاً بحث: السؤال في القرآن الكريم، وأثره في التربية والتعليم للدكتور أحمد بن عبد الفتاح ضليمي، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ١١١.

قالب المحاجاة وليختبر ما عندهم من العلم(١).

ومن نماذج ذلك قوله ﷺ: إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البوادي قال عبد الله بن عمر: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: «**هي النخلة**»(٢).

وقال ﷺ أيضاً: «**أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم، يغتسل فيه كل يوم خمساً هل يبقي من درنه شيء؟** قالوا: لا يبقي من درنه شيء قال: **فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا**»(٣).

وقد يأتي السؤال عما هو معلوم ومتقرر بين الناس، والغرض هو إثارة اهتمام السامعين واستحضار أقصى اهتمام وحضور ذهن وقلب، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ النَّحْرِ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا**»، قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، قَالَ: «**فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا**»، قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: «**فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا**»، قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ، قَالَ: «**فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا**»، فَأَعَادَهَا مِرَاراً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ

(١) انظر: عبد الفتاح أبو غدة: الرسول المعلم وأساليبه في التعليم، ص٤٨.
(٢) رواه البخاري (٦١)، ومسلم (٢٨١١).
(٣) رواه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ**»(١).

وأحياناً كان النبي ﷺ يعمد إلى أسلوب السؤال، كي يصحح للصحابة معنى مصطلح، أو مفهوم شائع لديهم، ومن ذلك قوله ﷺ: «**ما تعدون الصرعة فيكم؟**» قال: قلنا الذي لا يصرعه الرجال، قال: «**ليس بذلك، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب**»(٢).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟**» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ وَزَكَاتِهِ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا، فَيُقْعَدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْتَصَّ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**»(٣).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟**» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**». قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «**إِنْ كَانَ**

(١) رواه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩).
(٢) رواه مسلم (٢٦٠٨).
(٣) رواه مسلم (٢٥٨١).

فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ»[١].

وأحياناً كان ﷺ يستخدم أسلوب السؤال والاستفهام لاستخراج إجابة من السامعين تكون تمهيداً لما سوف يلقى عليهم من ترغيب أو ترهيب، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ، قَالَ: «**فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ**»[٢].

وقد يكرر النبي ﷺ السؤال أكثر من مرة قبل أن يلقي الجواب، أو ينادي على الصحابي أكثر من مرة قبل طرح السؤال والجواب لتتهيأ نفسه تمام التهيؤ، لتلقي العلم، فعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «**وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ، أَبَا الْمُنْذِرِ**»[٣].

وعن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا مُؤْخِرَةُ الرَّحْلِ، فَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ**»، قُلْتُ: لَبَّيْكَ

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٩).
(٢) رواه البخاري (٦٤٤٢).
(٣) رواه مسلم (٨١٠).

رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ**»، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ**»، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «**هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟**» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً**»، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ**»، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «**هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟**» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ**»[١].

ففي هذا الحديث نرى أن النبي ﷺ هيأ نفسية معاذ رضي الله عنه لإخباره بأمر عظيم بأن ناداه باسمه، حتى إذا استجاب وانتبه وفرغ سمعه سكت النبي ﷺ، ثم سار ساعة، ثم عاد وناداه ولفت انتباهه، وفي المرة الثالثة وبعد أن تهيأ معاذ تمام التهيؤ كلمه ﷺ فيما يريد أن يخبره به، بعد أن بدأه بسؤال حتى يشد الانتباه أكثر، ثم يسر إليه بهذا الأمر العظيم فيعيه معاذ ويفهمه تماماً، ويرسخ في ذهنه ويتذكره إلى حين وفاته[٢].

٣٦ ـ ضرب الأمثال لتقريب الفهم:

ومن المعلوم أن ضرب الأمثال من أفضل الطرق وأقربها

---

(١) رواه البخاري (٥٩٦٧)، ومسلم (٣٠).

(٢) انظر: د. يحيى زمزمي: الحوار آدابه وضوابطه في الكتاب والسُّنَّة، ص١٢٩.

لإيصال المعاني إلى أذهان السامعين، ومن فوائدها تقريب المراد: «وتفهيم المعنى، وإيصاله إلى ذهن السامع، وإحضاره في نفسه صورة المثال الذي مَثَّل به، فإنه قد يكون أقربَ إلى تَعقُّله وفهمه وضبطه واستحضاره له باستحضار نظيره؛ فإنَّ النفسَ تأنس بالنظائر والأشباه الأُنسَ التام، وتنفِرُ من الغُرْبة والوَحْدَة وعدم النظير؛ ففي الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق أمرٌ لا يجحده أحد، ولا ينكره، وكلما ظهرتْ لها الأمثال ازْدَادَ المعنى ظهوراً، ووضوحاً، فالأمثالُ شواهدُ المعنى المراد، ومزكية له، فهي: ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٩]، وهي خاصة العقل ولبّه وثمرته»(١).

وقد حفل القرآن بكثير من الأمثال المضروبة لأغراض شتى، يأتي في مقدمتها تقرير التوحيد وإقامة الحجج عليها، وبيان بطلان الشرك وذم فاعليه، وثمة دراسات عدة كتبت حول الأمثال في القرآن الكريم(٢).

كذلك حفلت السُّنَّة النبوية بأمثلة عديدة ضربها النبي ﷺ كي يرسخ المعاني في أذهان السامعين، وقد أفرد عدد من أهل

---

(١) ابن القيم إعلام الموقعين ٢/ ٤٢٥.

(٢) ومن نماذج ذلك: أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع للشيخ عبد الرحمٰن حسن حبنكة الميداني والأمثال في القرآن الكريم للدكتور محمد جابر فياض، والأمثال في القرآن الكريم للدكتور حمد بن عبد الله المنصور.

العلم المتقدمين كتباً مستقلة لجمع تلك الأمثال، مثل كتاب أمثال الحديث لأبي الشيخ الأصبهاني، وأمثال الحديث للرامهرمزي، وغير ذلك[(١)].

ومن نماذج الأمثال الواردة في السُّنَّة النبوية قول النبي ﷺ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَراً بِبَابِ أَحَدِكُمْ، يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْساً، مَا تَقُولُ: ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ**. قَالُوا: لَا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئاً، قَالَ: **فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا**»[(٢)].

وقال النبي ﷺ: «**مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقاً، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعاً**»[(٣)].

وقال النبي ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الْخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ مِنْ حَيْثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ كَفَأَتْهَا، فَإِذَا اعْتَدَلَتْ تَكَفَّأُ بِالْبَلَاءِ، وَالْفَاجِرُ كَالْأَرْزَةِ صَمَّاءَ مُعْتَدِلَةً حَتَّى يَقْصِمَهَا اللهُ إِذَا شَاءَ**»[(٤)].

---

(١) انظر: عبد الفتاح أبو غدة: الرسول المعلم، ص١١٣.
(٢) رواه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).
(٣) رواه البخاري (٢٤٩٣).
(٤) رواه البخاري (٥٦٤٤)، ومسلم (٢٨١٠).

وقال النبي ﷺ: «مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ، كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ، عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ، مِنْ ثُدِيِّهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ: فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا سَبَغَتْ، أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ، حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ، وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ. وَأَمَّا الْبَخِيلُ: فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئاً إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا، فَهُوَ يُوَسِّعُهَا وَلَا تَتَّسِعُ»(١).

وقال النبي ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالْأُتْرُجَّةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَالَّذِي لَا يَقْرَأُ كَالتَّمْرَةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، طَعْمُهَا مُرٌّ وَلَا رِيحَ لَهَا»(٢).

وقال النبي ﷺ: «إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ، كَمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، أُوتِيَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ التَّوْرَاةَ، فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا انْتَصَفَ النَّهَارُ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطاً قِيرَاطاً، ثُمَّ أُوتِيَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ الْإِنْجِيلَ، فَعَمِلُوا إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ عَجَزُوا فَأُعْطُوا قِيرَاطاً قِيرَاطاً، ثُمَّ أُوتِينَا الْقُرْآنَ، فَعَمِلْنَا إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَأُعْطِينَا قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ: أَيْ رَبَّنَا، أَعْطَيْتَ هَؤُلَاءِ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، وَأَعْطَيْتَنَا قِيرَاطاً قِيرَاطاً، وَنَحْنُ كُنَّا أَكْثَرَ عَمَلاً؟ قَالَ: قَالَ اللهُ عز وجل

(١) رواه البخاري (١٤٤٣).
(٢) رواه البخاري (٥٠٢٠)، ومسلم (٧٩٧).

هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَهُوَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ»[1].

٣٧ ـ اتخاذ الحوار وسيلة للتعليم وحل مشكلات الأمة أو بعض أفرادها:

ومن المعروف أن الحوار من أهم الطرق والأساليب لتكوين القناعات وغرس الأفكار وفي السُّنَّة النبوية نماذج كثيرة من حوارات الرسول ﷺ، ومن ذلك حديث جبريل الطويل والمشهور في تعليم أركانِ الإيمان،، وفيه تعلم الصحابة أهم أركان الإيمان على شكل حوار بين الرسول، وبين جبريل عليهما الصلاة والسلام.

ومن نماذج الحوار الأخرى، عن أنس بْنِ مَالِكٍ قال: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ، فَأَنَاخَهُ فِي الْمَسْجِدِ، ثُمَّ عَقَلَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟ وَالنَّبِيُّ ﷺ مُتَّكِئٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ. فَقُلْنَا: هَذَا الرَّجُلُ الْأَبْيَضُ الْمُتَّكِئُ. فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**قَدْ أَجَبْتُكَ**». فَقَالَ الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنِّي سَائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عَلَيْكَ فِي الْمَسْأَلَةِ، فَلَا تَجِدْ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ. فَقَالَ: «**سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ**»، فَقَالَ: أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ، آللَّهُ أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ؟ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ نَعَمْ**». قَالَ: أَنْشُدُكَ

(١) رواه البخاري (٥٥٧).

بِاللهِ، آللهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ؟ قَالَ: «**اللَّهُمَّ نَعَمْ**». قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللهِ، آللهُ أَمَرَكَ أَنْ نَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَةِ؟ قَالَ: «**اللَّهُمَّ نَعَمْ**». قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللهِ، آللهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِنَا فَتَقْسِمَهَا عَلَى فُقَرَائِنَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ نَعَمْ**». فَقَالَ الرَّجُلُ: آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي، وَأَنَا ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ[1].

وقد استعمل النبي ﷺ الحوار والسؤال وسيلة لإزالة ما في النفس من شكوك وهواجس أو ميل لمعصية عظيمة وكبيرة من الكبائر، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة أن رجلاً أتى إلى النبي ﷺ: يا رسول الله ولد لي غلام أسود فقال: «**هل لك من إبل؟** قال: نعم، قال: **فما ألوانها؟** قال: حُمر، قال: **هل فيها من أورق؟** قال: نعم، قال: **فأنى ذلك؟** قال: لعله نزعة عرق، قال: **فلعل هذا نزعة عرق**»[2].

وحينما جاء شاب يطلب الإذن في الزنا حاوره النبي ﷺ ودعا له حتى أذهب الله ما في نفسه، فعن أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: إِنَّ فَتًى شَابّاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ وَقَالُوا: مَهْ مَهْ، فَقَالَ: «**ادْنُهْ**» فَدَنَا مِنْهُ

(١) رواه البخاري (٦٣).
(٢) رواه البخاري (٥٣٠٥)، ومسلم (١٥٠٠).

قَرِيباً قَالَ: فَجَلَسَ قَالَ: «**أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ، قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ**» قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ**» قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ، قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ**» **قَالَ**: «**أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ، قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ**» قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ، قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ**» قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ**» قَالَ: فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ[١].

كذلك استعمل النبي ﷺ الحوار وسيلة لإزالة ما في نفوس الأنصار من ضيق طارئ بسبب عدم إعطائهم من الغنائم مثلما أخذ غيرهم، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَاصِمٍ قَالَ: «لَمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ، قَسَمَ فِي النَّاسِ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ، وَلَمْ يُعْطِ الْأَنْصَارَ شَيْئاً، فَكَأَنَّهُمْ وَجَدُوا إِذْ لَمْ يُصِبْهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ، فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالاً فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي،**

(١) رواه أحمد (٢٢٦٤١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٧١٢).

وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي. كُلَّمَا قَالَ شَيْئاً» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ، قَالَ: «مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُجِيبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ». قَالَ: كُلَّمَا قَالَ شَيْئاً، قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ، قَالَ: «لَوْ شِئْتُمْ قُلْتُمْ: جِئْتَنَا كَذَا وَكَذَا، أَتَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى رِحَالِكُمْ، لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِياً وَشِعْباً لَسَلَكْتُ وَادِيَ الْأَنْصَارِ وَشِعْبَهَا، الْأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ، إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ»[1].

٣٨ ـ تنويع وسائل التعليم:

والقدوة والنموذج الأمثل في هذا الباب هو رسول الله ﷺ الذي كان «يختار في تعليمه من الأساليب أحسنها وأفضلها، وأوقعها في نفس المخاطب، وأقربها إلى فهمه وعقله، وأشدها تثبيتاً للعلم»[2]، ولم يكن النبي ﷺ يترك وسيلة تعليمية أو تربوية لإفهام الصحابة، وإيصال المعاني إليهم إلا واستعملها على أفضل الوجوه وأتمها.

ومن ذلك رسمه ﷺ على الأرض أو التراب لتوضيح بعض المعاني، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خط النبي ﷺ خطّاً مربعاً، وخط خطّاً في الوسط خارجاً منه، وخط

(١) رواه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).

(٢) عبد الفتاح أبو غدة: الرسول المعلم، ص٦٣، وانظر أماني قليوبي: التربية العقلية في السُّنَّة النبوية، ص١٤١.

خططاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط، من جانبه الذي في الوسط، وقال: «هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به، أو قد أحاط به، وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا»[١].

وعن جَابِرٍ قَالَ: كُنَّا جُلُوساً عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَخَطَّ خَطّاً هَكَذَا أَمَامَهُ، فَقَالَ: «**هَذَا سَبِيلُ اللهِ [ﷻ]**» وَخَطَّيْنِ عَنْ يَمِينِهِ وَخَطَّيْنِ عَنْ شِمَالِهِ قَالَ: «**هَذِهِ سُبُلُ الشَّيْطَانِ**» ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الْأَوْسَطِ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾»[٢].

ومن الوسائل أيضاً الإشارة باليد أو الأصابع أو تشبيكها، للفت الانتباه أو لبيان العدد، ومن نماذج ذلك أنه ﷺ في خطبته بعرفة في حجة الوداع قال: «**وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟** قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ، وَأَدَّيْتَ، وَنَصَحْتَ. فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: **اللَّهُمَّ اشْهَدِ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ**، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»[٣].

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٧).

(٢) رواه أحمد (١٥٥١٠)، وابن ماجه (١١)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

(٣) رواه مسلم (١٢١٨).

وعن ابن عباس أنه ﷺ قال: «**فتِحَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ وَعَقَدَ تِسْعِينَ**»[١]، وقال ﷺ: «**إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَكْتُبُ، وَلَا نَحْسُبُ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا، وَعَقَدَ الْإِبْهَامَ فِي الثَّالِثَةِ، وَالشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا**؛ يَعْنِي: تَمَامَ ثَلَاثِينَ»[٢].

ولما أمر أصحابه في حجة الوداع بأن يحل من ليس معه هدي ويجعلها عمره قامَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلِعَامِنَا هَذَا أَمْ لِأَبَدٍ؟ فَشَبَّكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَصَابِعَهُ وَاحِدَةً فِي الْأُخْرَى، وَقَالَ: «**دَخَلَتِ الْعُمْرَةُ فِي الْحَجِّ مَرَّتَيْنِ، لَا بَلْ لِأَبَدِ أَبَدٍ**»[٣].

ومن ذلك أيضاً أنه ﷺ حمل بيده الشريفة الشيء الذي نهى عن لبسه، ورفعه إلى أنظار المخاطبين، ليجمع لهم بين النهي عن الشيء بالقول، والمشاهدة للمنهي عنه بالعين، فيكون أوقع في النفوس وأبلغ في الدلالة على التحريم[٤]، فعن علي بن أَبِي طَالِبٍ قال: إِنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ أَخَذَ حَرِيراً، فَجَعَلَهُ فِي يَمِينِهِ، وَأَخَذَ ذَهَباً فَجَعَلَهُ فِي شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ هَذَيْنِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي**»[٥].

---

(١) رواه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠).
(٢) رواه مسلم (١٠٨٠).
(٣) رواه البخاري (٧٢٣٠)، ومسلم (١٢١٦).
(٤) انظر: عبد الفتاح غدة: الرسول المعلم وأساليبه في التعليم، ص١٢٥.
(٥) رواه أبو داود (٤٠٥٧)، والنسائي (٥١٥٩)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود والنسائي.

كذلك أمر النبي ﷺ بصنع منبر ليكلم الناس عليه، وليكون أوضح في الرؤية من قبلهم، وقد استخدمه ﷺ يوماً ليعلم الناس الصلاة وهو واقف عليه، ليأتموا به، وليتعلموا منه، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: أَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى امْرَأَةٍ - قَالَ أَبُو حَازِمٍ: إِنَّهُ لَيُسَمِّيهَا يَوْمَئِذٍ - انْظُرِي غُلَامَكِ النَّجَّارَ يَعْمَلْ لِي أَعْوَاداً أُكَلِّمُ النَّاسَ عَلَيْهَا، فَعَمِلَ هَذِهِ الثَّلَاثَ دَرَجَاتٍ. ثُمَّ أَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَوُضِعَتْ هَذَا الْمَوْضِعَ فَهِيَ مِنْ طَرْفَاءِ الْغَابَةِ. وَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَامَ عَلَيْهِ فَكَبَّرَ وَكَبَّرَ النَّاسُ وَرَاءَهُ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ، ثُمَّ رَفَعَ فَنَزَلَ الْقَهْقَرَى حَتَّى سَجَدَ فِي أَصْلِ الْمِنْبَرِ، ثُمَّ عَادَ حَتَّى فَرَغَ مِنْ آخِرِ صَلَاتِهِ. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي إِنَّمَا صَنَعْتُ هَذَا لِتَأْتَمُّوا بِي، وَلِتَعْلَمُوا صَلَاتِي**»(١).

كذلك كان ﷺ يجمع بين القول والفعل في إبلاغهم الأحكام وتعليمهم الأوامر والنواهي ولا شك أن التعليم بالفعل أبلغ وأضبط للمتعلم(٢)، وقد حرص ﷺ على ذلك في أعظم العبادات وهي الصلاة فقال: «**صلّوا كما رأيتموني أصلي**»(٣)، وكذلك في المناسك فقال: «**لتأخذوا عني مناسككم**»(٤)

(١) رواه البخاري (٣٧٧)، ومسلم (٥٤٤).
(٢) ابن حجر: فتح الباري ١/ ٣١١.
(٣) رواه البخاري (٦٣١).
(٤) رواه مسلم (١٢٩٧).

ولا يقتصر الأمر على هذين البابين فقط من أبواب الشريعة، بل كان التعليم بالقدوة والجمع بين القول والعمل هدياً مطرداً منه ﷺ، فعنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ اصْطَنَعَ خَاتَماً مِنْ ذَهَبٍ، وَكَانَ يَلْبَسُهُ فَيَجْعَلُ فَصَّهُ فِي بَاطِنِ كَفِّهِ، فَصَنَعَ النَّاسُ، ثُمَّ إِنَّهُ جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَنَزَعَهُ، فَقَالَ: «**إِنِّي كُنْتُ أَلْبَسُ هَذَا الْخَاتَمَ، وَأَجْعَلُ فَصَّهُ مِنْ دَاخِلٍ**» فَرَمَى بِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**وَاللهِ لَا أَلْبَسُهُ أَبَداً فَنَبَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَهُمْ**»[(١)].

وعلى هذا النهج النبوي في البلاغ والتعليم سار الصحابة فعن الضَّحَّاكِ، أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَذَابَ فِضَّةً مِنْ بَيْتِ الْمَالِ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أَهْلِ الْمَسْجِدِ فَقَالَ: «**مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْمُهْلِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذِهِ**»[(٢)].

ومن أساليبه ﷺ في التعليم أيضاً أسلوب الاستنباط، والتدرج بالسائل كي يصل إلى حل إشكاله من أيسر طريق، ونعني بالاستنباط هنا استنتاج شيء مجهول من شيء معلوم، فهو نوع من البرهنة على صدق قضية ما في ضوء مبادئ عامة تصدق عليها[(٣)].

ومن نماذج ذلك أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا

---

(١) رواه البخاري (٥٨٧٦)، ومسلم (٢٠٩١).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٩١٠٩)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/١٠٨): فيه يحيى الحماني وهو ضعيف.

(٣) انظر: أماني قليوبي: التربية العقلية في السُّنَّة النبوية، ص١٥٧.

رسول الله: ولد لي غلام أسود! فقال: «**هل لك من إبل؟** قال: نعم، قال: **ما ألوانها؟** قال: حمر، قال: **هل فيها من أورق؟** قال: نعم، قال: **فأنى ذلك؟** قال: لعله نزعه عرق، قال: **فلعل ابنك هذا نزعه**»[(١)].

وجَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوْمُ شَهْرٍ، أَفَأَقْضِيهِ عَنْهَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، قَالَ: «**فَدَيْنُ اللهِ أَحَقُّ أَنْ يُقْضَى**»[(٢)].

ولما أخبر النبي ﷺ الصحابة أن في بضع أحدهم صدقة تعجبوا وقالوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونَ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْراً**»[(٣)].

ومن الوسائل النبوية أيضاً أن ينتقل بالسامع من صورة واقعية محسوسة إلى صورة ذهنية علمية تتعلق بالإيمان والأخلاق والسلوك[(٤)]، ومن أمثلة ذلك عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيّاً فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: «**أَتَرَوْنَ هَذِهِ**

(١) رواه البخاري (٥٣٠٥)، ومسلم (١٥٠٠).
(٢) رواه البخاري (١٩٥٣)، ومسلم (١١٤٨).
(٣) رواه مسلم (١٠٠٦).
(٤) انظر: د. سعيد إسماعيل علي: السُّنَّة رؤية تربوية ص٤٢٧.

طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟» قُلْنَا: لَا، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: «**لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**»(١).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ دَاخِلاً مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ، وَالنَّاسُ كَنَفَيْهِ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ثُمَّ قَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟**» فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «**أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟**» قَالُوا: وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيّاً كَانَ عَيْباً فِيهِ لِأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ! فَقَالَ: «**فَوَاللهِ، لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ**»(٢).

وفي هذا الحديث جعل الرسول ﷺ من ذلك الجدي الميت المعيب درساً عمليّاً، وموعظة بليغة في بيان قيمة الدنيا وحقيقتها، وأنها لا تستحق هذا التكالب والتحاسد، فانتقل من قضية الجدي الأسك المحسوسة إلى قضية ذهنية علمية(٣).



(١) رواه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).
(٢) رواه مسلم (٢٩٥٧).
(٣) انظر: د. سعيد إسماعيل علي: السُّنَّة رؤية تربوية، ص٤٢٨.



المبحث الرابع

أخلاقيات العلم وآدابه

ويُعد هذا الجانب من أبرز الجوانب التي يتميز بها الإسلام عما سواه من الأنظمة، والفلسفات الأخرى، بل لا أظن أن هناك حضارة، أو فلسفة أولت الجانب الأخلاقي في تلقي العلمي اهتماماً وعناية، مثلما عليه الحال في الإسلام.

ولم يقتصر الأمر على إشارات عابرة في كتب الآداب والأخلاق، أو في الكتب التي صنفت في فضل العلم وطرق تحصيله، وإنما قام عدد من أهل العلم بتصنيف كتب مفردة في بيان أخلاق العلم وآداب طلبه عموماً، أو أخلاق أهل فن من الفنون العلمية.

ومن نماذج ذلك: أخلاق العلماء للآجري، وأخبار الشيوخ وأخلاقهم للمروذي، والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي والتبيان في آداب حملة القرآن للنووي، كما عنيت بعض الكتب بذكر آفات المشتغلين بالعلم، والتحذير مما يقعون فيه من مخالفات وأفعال تتنافى مع رونق العلم وهيبته وأدبه، ومن ذلك كتاب: «زغل العلم» للذهبي، وكذلك ما ذكره ابن الجوزي في كتابه: «تلبيس إبليس»، وما

ذكره السبكي في كتابه: «معيد النِّعم ومبيد النقم».

وقد جاءت الأدلة الشرعية قاطعة في التأكيد على أن العلم المحمود ليس سوى العلم النافع، الذي يفيد صاحبه أولاً، ويورثه المعرفة بالله والخشية منه، كما قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] ثم بعد أن ينفع المتعلم نفسه بالعلم، عليه أن يوسع من دائرة الانتفاع لتشمل كل من استطاع نفعه من عباد الله في شتى مصالح دينهم ودنياهم.

ولن يتأتى للعلم أن يكون بهذه المثابة، إلا إذا تحلى طرفاه الأساسيان وهما العالم، والمتعلم بجملة الأخلاقيات، التي وردت في النصوص الشرعية، وحفلت بها الكثير من كتابات أهل العلم، التي أفردت لتناول هذا الموضوع المهم، والذي تتعاظم ضرورته في عصرنا هذا، لا سيما إذا ألقينا نظرة سريعة على الواقع البئيس، الذي آلت إليه أحوالنا.

ولا أظن أننا بحاجة كي نطيل في سكب العبرات، أو نثر عبارات الأسى والحسرة على حال العلم وأهله، وحال سائر أطراف العملية التعليمية بمختلف مستوياتها، لا فرق في ذلك بين التعليم في المساجد أو المدارس، أو المعاهد والجامعات، كما لا فرق بين العلوم الشرعية واللغوية، أو العلوم التجريبية المختلفة، حيث وصل الأمر إلى مستوى مؤسف، تضاءلت معه قيمة العلم ومكانة أهله إذا ما قورنت

بقيمة المال ومنزلة أصحابه، بل إذا ما قورنت بمكانة من لا خلاق لهم من أهل الرياضة والفن، مع أنه لا يكاد يوجد خلاف على أن الثروة الحقيقية لأي أمة، والتي لا تدانيها ثروة أخرى، تتمثل فيما تملكه من علم وعلماء، وما تنشئه من جامعات ومدارس، وما تحصله من علوم ومعارف، وكم من أمم خاضت حروباً مدمرة، خرجت منها مهزومة هزيمة نكراء، لكنها سرعان ما استفاقت من غفوتها، وقامت من كبوتها، وأعادت مجدها في ظرف سنين قليلة؛ لأنها وإن خسرت جيشاً وسلاحاً، وأرضاً ومصانع، وقصوراً وبيوتاً، فقد احتفظت بعقول وعبقريات، ومعامل وجامعات، وعلماء وطلبة علم.

وليست هذه الحقيقة الواضحة بحاجة لكثير من الأمثلة أو الشواهد للتدليل عليها، فقد صار من المقطوع به الآن أن الأمم التي تعلم وتربي بطريقة أفضل هي الأمم المهيئة لأن تتبوأ القمة في الجانب المادي، وهذا ما نشاهده اليوم في حياتنا، فمعظم الدول ذات المستوى المرتفع في المعيشة لم يتحسن اقتصادها بسبب ما تملك من ثروات، وإنما بسبب توظيف العلم والمعرفة، وتقدم الصناعة[١].

ولعل المطالع لنموذج النهوض ـ في جانبه المادي وليس العقدي والأخلاقي ـ لدى دولة مثل اليابان تكاد أن تكون خلو

(١) انظر: د. عبد الكريم بكار: بناء الأجيال، ص٧.

اليدين من الثروات الطبيعية المختلفة، وفي مقدمتها مصدر الطاقة الأهم في عصرنا ـ وهو البترول ـ يدرك الحقيقة السابقة بوضوح، والمثير للشجن حقّاً أن اليابان ودولاً عربية أخرى قد انطلقوا في تجربة التحديث والنهوض المادي في فترة زمنية متلاحقة، لكن شتان الفرق في النهاية التي آلت إليها التجربتان، كما تكفلت بتفصيل ذلك بعض الدراسات التي صدرت حديثاً[(١)].

وخلاصة ما نريد قوله هنا هو: أن الاهتمام بالعلم ـ بمعناه الواسع والشامل ـ فريضة شرعية، تأثم الأمة إن قصرت فيها، وضرورة معيشية وحياتية، لا طريق غيرها للنهوض والتقدم، وما لم يعط العلم وأهله كل تقدير وعناية، وكل حرص واهتمام، فلن يتسنى تغيير الحال، أو تبديل الأوضاع السيئة التي يشكو منها القاصي والداني.

لكن واقع الحال يشهد ـ كما أشرنا من قبل ـ أن الاهتمام بالعلم والحرص على تحصيله فحسب لا يكفي، بل ربما كان وبالاً على صاحبه، وإنما لا بد أن يتحلى كل علم ومتعلم بالأخلاقيات الضرورية التي تزينه، وتهيئ له أن ينتفع بعلمه أولاً، ثم أن ينفع أمته ثانياً.

ولما كان العلم «عبادة القلب، وصلاة السر، وقربة

(١) انظر: د. مسعود ضاهر: النهضة العربية والنهضة اليابانية تشابه المقدمات واختلاف النتائج، سلسلة عالم المعرفة، العدد **٢٥٢**.

الباطن إلى الله تعالى»[١]، فإنه لن يؤتي ثمرته، ولن ينفع صاحبه، إلا إذا تحلى بجملة من الآداب والأخلاق التي تزين طالب العلم ومعلمه، وترفع من قدرهما في الدنيا والآخرة، وكما يقول الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «زينة العلماء التقوى وحليتهم حسن الخلق، وجمالهم كرم النفس»[٢].

ويضاف لذلك أن المتأمل لحقيقة ديننا الحنيف يلحظ أن الأدب يمثل جانباً أساسيّاً، وركناً ركيناً من أركان هذا الدين، وهو ضروريٌ للمسلم في علاقته مع ربّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومع الرسل، ومع الخلق عامّة، كما أنه لازم للمسلم في جميع أحواله، حتى في خلوته مع نفسه، وهذه الآداب منها ما أوجبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الصغير والكبير، والمرأة والرجل، والغني والفقير، والعالم والعامّي، وكل ذلك من أجل أن يظهر أثر هذا الدين في واقع الحياة العملي، وليتميز المسلمون عن غيرهم، وليظهر سمو هذه الشريعة وكمالها وعظمتها[٣].

ويظهر من التعريفات التي قدمها أهل العلم للأدب، مدى شموليته لكافة جوانب الحياة وأنشطتها، وقد عرف الحافظ ابن حجر ـ في شرحه لكتاب الأدب من «صحيح الإمام البخاري» ـ

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ١/ ٤٨.

(٢) ابن حجر العسقلاني: توالي التأسيس لمعالي محمد بن إدريس، ص١٣٥، تحقيق: عبد الله القاضي.

(٣) انظر: محمد صالح المنجد: أَهميّة الأدب في حياة المسلم، ص١، ود. محمد بن حسن بن عقيل: حصول الطلب بسلوك الأدب، ص٤٩ ـ ٦١.

الأدب بأنه «استعمال ما يُحمد قولاً وفعلاً»[١] وعرفه ابن القيم بأنه «اجتماع خصال الخير في العبد»[٢].

ويحفل تراثنا الزاهر بكثير من الكتابات في هذا المجال، وقد نثر الفقهاء الآداب على أبواب الفقه، فذكروا في كل باب ما يخصُّه من الآداب، ففي باب الطهارة ذكروا آدابها، وفي القضاء ذكروا آداب القضاء، وأما كتب الحديث فقلما يخلو مؤلف منها من باب أو كتاب مستقل، معنون بكتاب الأدب.

وإضافة لما سبق فقد صنفت كتب خاصة بالأدب عموماً مثل كتاب «الأدب المفرد» للبخاري، و«الآداب الشرعية» لابن مفلح، و«غذاء الألباب شرح منظومة الآداب» لابن عبد القوي، والشرح للسفاريني، وكتاب «أدب الدنيا والدين» للماوردي وغيرها الكثير.

وهناك كتب تكلمت بشكل خاص عن آداب معينة مثل «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم» لابن جماعة، و«الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي، و«أدب الإملاء والاستملاء» للسمعاني، وهو يتناول إملاء الحديث وكتابته؛ أي: كيف يملى المحدث الحديث، وكيف يكتبه عنه الطلاب، و«آداب الفُتيا» للسيوطي وكذلك «آداب الأكل» للأقفهسي، و«آداب الأطفال» للهيثمي، وفي

---

(١) ابن حجر: فتح الباري: ١٠/ ٤٠٠.

(٢) ابن القيم: مدارج السالكين ٢/ ٣٧٥.

آداب البحث والمناظرة هناك كتاب الشنقيطي «آداب البحث والمناظرة»، وفي الصحبة هناك كتاب «آداب الصحبة» للسلمي، وهناك كتب في آداب التجارة، وآداب الحوار، وآداب الزفاف، وآداب معاملة اليتيم، وآداب الطبيب، وغير ذلك الكثير[١].

وفيما يتعلق بموضوعنا ـ وهو آداب طلب العلم ـ نجد أن نصوص أهل العلم المتقدمين، قد تعددت في التأكيد على أهمية هذا الأدب، وضرورة مراعاته، وأنه لا بد أن يسبق تحصيل العلم نفسه، إدراكاً منهم لخطورة تعلم الطالب للعلم، دون أن يكون معه خلق يزكيه، وأدب يحليه.

وربما استغرب البعض شيئاً من هذه الأقوال، وظنها من قبيل المبالغة، بينما الحال على النقيض من ذلك تماماً، ويجب أن نفهم هذه النصوص في ضوء سيرة السلف رضوان الله عليهم، وأنهم ما أرادوا بالعلم سوى وجه الله وجنته، وما كانوا يقصدون نعيم الدنيا الزائل، أو متاعها القليل.

ومن هذه الأقوال[٢] ما روي عن سفيان الثوري أنه

---

(١) انظر أسماء العديد من الكتب في هذا الباب عند: حاجي خليفة في كشف الظنون ١/٤١ ـ ٤٦، ود. محمد بن حسن بن عقيل: حصول الطلب بسلوك الأدب، ص١٤٧ ـ ١٥٥، ومحمد صالح المنجد: أَهميّة الأدب في حياة المسلم، ص٢.

(٢) انظر هذه النقول ومراجعها عند: أبي الخطاب العوضي: أسس منهج طلب العلم عند السلف، ص٦ ـ ٨، ود. صلاح الصاوي: أدب طالب العلم، ص٦ ـ ٩، ود. محمد ابن حسن بن عقيل: حصول الطلب =

قال: «كانوا لا يخرجون أبناءهم لطلب العلم، حتى يتأدبوا ويتعبدوا عشرين سنة». وقال عبد الله بن المبارك: «لبت الأدب ثلاثين سنة، وطلبت العلم عشرين سنة وكانوا يطلبون الأدب قبل العلم». وقال أيضاً: «كاد الأدب يكون ثلثي العلم». وقال محمد بن سيرين: «كانوا يتعلمون الهدي كما يتعلمون العلم». وعن عبد الله بن المبارك قال: قال لي مخلد بن الحسين: «نحن إلى كثير من الأدب، أحوج منا إلى كثير من الحديث». وقال الليث بن سعد، وقد أشرف على جماعة من أصحاب الحديث، فرأى منهم شيئا فقال: «ما هذا؟ أنتم إلى يسير من الأدب، أحوج منكم إلى كثير من العلم».

ولعل من الصعب أن نحصر الآداب التي يتوجب على طالب العلم مراعاتها والتحلي بها، إذ يحتاج ذلك لمصنف مستقل، ومن ثم نكتفي بالإشارة إلى أهم تلك الآداب بصورة موجزة:

١ ـ إخلاص النية لله تعالى:

والنية هي ركن العمل ولبه، وعليها المعول الأساسي في قبوله أو رده، وبقدر صلاحها يصلح العمل، وإذا أصابها دخن

= بسلوك الأدب ص٢٣ ـ ٣١، ومحمد عوامة أدب الاختلاف في العلم والدين ص٦٢.

أو خلل، بطل العمل أو نقص، بحسب ما اعترى النية من فساد[١].

وإذا فقد العلم إخلاص النية، انتقل من كونه أفضل الطاعات إلى أن يصير أحط المخالفات، ولا شيء يحطم العلم مثل الرياء، والتسميع، ومن ثم وجب على طالب العلم التخلص من كل ما يشوب نيته في صدق الطلب، كحب الظهور، والتفوق على الأقران، وجعله سلماً لأغراض، وأعراض من جاه، أو مال، أو تعظيم، أو سمعة، أو صرف وجوه الناس إليه فإن هذه الأمور وأمثالها إذا شابت النية، أفسدتها، وذهبت بركة العلم[٢].

وقد تواترت الأدلة الشرعية من الكتاب والسُّنَّة في بيان ضرورة الإخلاص ولزومه لقبول العمل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥].

وأما من السُّنَّة فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى**

(١) عبد العزيز السدحان: معالم في طريق طلب العلم، ص١٩.
(٢) انظر: د. بكر أبو زيد: حلية طالب العلم، ص٦، ٧.

دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[١]، وقال ﷺ: «**إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها: بدعوتهم وصلاتهم، وإخلاصهم**»[٢]، وقال أيضاً: «**إن الله** ﷻ **لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا، وابتغي وجهه**»[٣].

وإذا كانت هذه الأحاديث تؤكد على لزوم الإخلاص في سائر الأعمال، فقد ورد التحذير على وجه الخصوص من طلب العلم لغير الله، ويكفي أن نشير هنا لقوله ﷺ: «**من طلب العلم ليجاري به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار**»[٤].

والنية التي ينبغي على طالب العلم استحضارها في مراحل طلبه المختلفة هي أن ينفع نفسه أولاً، بأن يرفع عنها آفة الجهل، ثم أن ينفع أمته، وسائر المسلمين[٥]، وقد نقل عن المتقدمين من أهل العلم الكثير من الأقوال والروايات التي تشهد بما كانوا عليه من إخلاص، وصفاء نية[٦].

ومن ذلك ما حكي عن الشافعي أنه قال: «وددت أن

---

(١) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).
(٢) رواه النسائي (٣١٧٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٨٨).
(٣) رواه النسائي (٣١٤٠)، وقال الألباني في صحيح النسائي: حسن صحيح.
(٤) رواه الترمذي (٢٦٥٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٨٣).
(٥) ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، ص٩٧.
(٦) انظر: د. سيد حسين العفاني: صلاح الأمة في علو الهمة ١/ ١٢١ ـ ١٢٣.

الخلق يتعلمون هذا العلم، ولا ينسب إلي منه شيء»، وقال أيضاً: «وددت أن كل علم أعلمه يعلمه الناس، أوجر عليه ولا يحمدوني»[(١)]، وقال هشام الدستوائي: «والله ما أستطيع أن أقول: إني ذهبت يوماً قط أطلب الحديث، أريد به وجه الله عز وجل»[(٢)].

وكما يقول الذهبي رحمه الله: «فقد كان السلف يطلبون العلم لله فنبلوا وصاروا أئمة يقتدى بهم، وطلبه قوم منهم أولاً لا لله، وحصلوه، ثم استفاقوا، وحاسبوا أنفسهم، فجرهم العلم إلى الإخلاص في أثناء الطريق كما قال مجاهد وغيره: طلبنا هذا العلم وما لنا فيه كبير نية، ثم رزق الله النية بعد، وبعضهم يقول: طلبنا هذا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله»[(٣)].

ولعل واقع الحال الذي نعيشه الآن يدل على أن قضية النية الصالحة من الأمور الغائبة عن أذهان عدد غير قليل من طلبة العلم ـ إلا من رحم الله ـ حتى من كان منهم متخصصاً في العلوم الشرعية، وقد انعكس ذلك على مستواهم العلمي، وسلوكهم، وعدم التزامهم العمل بما يعملون، وكما يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله: «غاية العالم المسلم أن

(١) أبو نعيم الأصفهاني: حلية الأولياء ٤/ ١٠٠.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٧/ ١٥٢.
(٣) المصدر السابق ٧/ ١٥٢.

يهتدي في نفسه وأن يهدي غيره، أما أكثر الطلاب فمنهم من تكون غايته الوظيفة، فهم غفلة عن أنفسهم وعن غيرهم، ومنهم من تكون غايته أن ينال الشهادة بالعلم، فهو مثل الأول، فأما الغاية الحقيقية التي ذكرنا فما أقل أهلها؛ لأنها لا ذكر لها في برامج التعليم، ولا اهتمام بها من المعلمين، وحق على كل طالب أن تكون هي غايته»[١].

وأخيراً فإن من المهم أن ننبه إلى أن الإخلاص في طلب العلم شرط تتابعي لا ابتدائي، ومعنى ذلك أن طالب العلم يحرص على متابعة الإخلاص في نفسه، ولا يمتنع عن الطلب بدعوى أنه لم يتحقق لديه الإخلاص، وأما ما يقذفه الشيطان في قلب بعضهم، قاصداً صرفهم عن العلم، بدعوى ترك الطلب حتى يتحقق إخلاص النية، فهو حيلة شيطانية ومكر وخديعة، بل على المسلم أن يستمر في طلب العلم، ويتابع نيته[٢]، كما قال بعض السلف: «طلبنا هذا العلم، وما لنا فيه كبير نية، ثم رزقنا الله النية بعد»، وقال آخرون: «طلبنا هذا العلم لغير الله، فأبى العلم أن يكون إلا لله»[٣].

---

(١) عمار الطالبي: ابن باديس ٤/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤، نقلاً عن أسس منهج العلم عند السلف لأبي الخطاب العوضي، ص٤.
(٢) انظر: محمد عمر بازمول: التأصيل في طلب العلم، ص٨.
(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٧/ ١٥٢.

٢ ـ المنهجية في الطلب:

ونقصد بالمنهجية في طلب العلم: الطريقة أو الخطة المنظمة، ذات الخطوات المتدرجة، والهدف الواضح، التي يستصحبها طالب العلم أو المعلم للوصول إلى المقصود، وهو تحصيل فن علمي ما، أو مجموعة من الفنون.

ومن المقطوع به أن كل سير حسي أو معنوي، دون خطة أو منهج لا يمكن أن يحقق المراد منه، بل لا بد أن ينتهي بالفشل والإخفاق، وكذلك الحال في طلب العلم ـ أيا كانت نوعية هذا العلم ـ حيث يستحيل على الطالب أن يحقق مراده، ويفلح في مسعاه، إلا إذا سار على هدي منهجية واضحة.

ولما كان من الصعب على طالب العلم المبتدئ أن يتوصل بنفسه إلى تلك المنهجية، فمن الضروري أن يستفيد بجملة القواعد المنهجية، التي قررها من سبقه في هذه الطريق، لا سيما أصحاب الباع الطويل في تعلم العلم وتعليمه، والكتابة في كيفية طلبه وتحصيله.

وثمة عدد من القواعد المنهجية المهمة، التي لا بد لطالب العلم أن يراعيها، ومن أبرزها ضرورة التدرج في طلب العلم، والبدء بفروض الأعيان قبل فروض الكفايات، وبعلوم المقاصد قبل علوم الوسائل، وبالأصول قبل دقائق الفروع.

ونعني بذلك أن العلوم الشرعية ليست على مرتبة سواء، بل تنقسم بعدة اعتبارات، فهناك من العلوم ما يجب على كل

مكلف أن يتعلمه، ولا يسعه أن يجهله، وهناك علوم أخرى لا تجب إلا على المتخصصين، كما أن العلوم تنقسم إلى علوم مقاصد، وعلوم وسائل، والواجب على طالب العلم أن يبدأ بالأوجب، والأكثر أهمية، قبل أن يشغل نفسه بفروض الكفايات، أو علوم الوسائل.

ومن لم يسلك سبيل التدرج، والبدء بالمهم في طلب العلم، فلن يصل إلى مطلوبه، وكما قيل: من لم يتقن الأصول، حرم الوصول ومن رام العلم جملة، ذهب عنه جملة، وقيل أيضاً: ازدحام العلم في السمع مضلة الفهم، وعليه فلا بد لطالب العلم من التأصيل والتأسيس لكل فن يطلبه، بضبط أصله ومختصره على شيخ متقن، لا بالتحصيل الذاتي وحده، آخذاً الطلب بالتدرج[(١)].

ومما يشهد لضرورة التدرج في طلب العلم قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: ٣٢]، وقال ﷺ: «**إنما العلم بالتعلم**»[(٢)]، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ

(١) انظر: د. بكر أبو زيد: حلية طالب العلم، ص١٨.
(٢) رواه الخطيب في تاريخه (٩/ ١٢٧)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٤٢).

تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران: ٧٩]. قال ابن عباس رضي الله عنه: «ربانيين»؛ أي: «حُلَمَاءَ فُقَهَاءَ، وَيُقَالُ: الرَّبَّانِيُّ الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ»[(١)].

ومما يشهد لأهمية التدرج في التربية والتعليم معاً، ما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر، لقالوا لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنوا، لقالوا لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ، وإني لجارية ألعب ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر: ٤٦] وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده»[(٢)].

وعن جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَاوِرَةٌ، فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ، فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَاناً[(٣)]، وحينما أرسل النبي ﷺ معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن أوصاه بالتدرج في الدعوة والتبليغ فقال له: «**إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْماً أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى: أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ**

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل.
(٢) رواه البخاري (٤٩٩٣).
(٣) رواه ابن ماجه (٦١)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»(١).

وثمة نصوص كثيرة عن أهل العلم في أهمية التدرج في طلب العلم، ومن ذلك قول الزهري لتلميذه يونس بن يزيد «لا تكابر العلم؛ فإن العلم أودية، فأيها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه، ولكن خذه مع الأيام والليالي، ولا تأخذ العلم جملة؛ فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة، ولكن الشيء بعد الشيء مع الليالي والأيام»(٢). وقيل للإمام مالك: ما تقول في طلب العلم؟ قال: حسن جميل، لكن انظر الذي يلزمك من حين تصبح إلى أن تمسي فالزمه»(٣)

ولا شك أن أسلوب التدرج والانتقال من السهل إلى الصعب في التعليم والتعلم، هو أنجح الأساليب التربوية وأكثرها جدوى، وكما يقول ابن خلدون: «علم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً، إذا كان على التدريج شيئاً فشيئاً، وقليلاً قليلاً، يلقى عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هي

---

(١) رواه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

(٢) ابن عبد البر: جامع بيان العلم ١/ ٤٣١.

(٣) أبو نعيم الحلية ٦/ ٣١٩، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٨/ ٩٧، وانظر: عبد العزيز السدحان: معالم في طريق طلب العلم، ص٧٥.

أصول ذلك الباب، ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال، ويراعى في ذلك قوة عقله، واستعداده لقبول ما يورد عليه، حتى ينتهي إلى آخر الفن»[١].

ومن القواعد المنهجية الأخرى ضرورة فهم المصطلحات المستخدمة في كل فن من الفنون، ومن المعروف أن لكل علم مجموعة من المصطلحات الخاصة به، والتي تتردد على ألسنة المصنفين في هذا العلم، وبدون الإحاطة والفهم الجيد لهذه المصطلحات، لا يمكن لأي أحد أن يحسن فهم هذا العلم، أو يلم بقضاياه ومسائله.

ونظراً لأهمية تحديد المصطلحات وفهمها، فقد كثرت المصنفات التي تناولت مصطلحات بعض العلوم خاصة، ومنها ما تناول المصطلحات في سائر الفنون، مثل كتاب «التعريفات» للجرجاني، و«التوقيف على مهمات التعاريف» للمناوي، و«كشاف اصطلاحات الفنون» للتهانوي، و«الكليات» لأبي البقاء، وغير ذلك الكثير.

وإضافة لأهمية فهم المصطلحات فقد استقر العرف عند كثير من أهل العلم، لا سيما المتأخرين منهم على وضع عدد من المسائل والقضايا، التي لا بد لكل من أراد أن يدرس علماً جديداً أن يلم بها أولاً، وأطلقوا على هذه المسائل: مبادىء العلوم.

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص٧٣٤، تحقيق: خليل شحادة، ومراجعة: سهيل زكار.

٣ ـ الأدب في التعامل مع الأستاذ، والكتب ورفاق الطلب:

ولعل المتأمل في قضية طلب العلم يجد أن هناك أطرافاً أساسية في هذا الأمر، لا يمكن تصوره بدونها، وهذه الأطراف هي: طالب العلم نفسه من جهة، ثم الأستاذ أو الشيخ، والكتب، ورفيق الطلب من جهة أخرى، وثمة عدد من الآداب، التي يجب على طلب العلم أن يراعيها مع كل طرف من هذه الأطراف الثلاثة:

أ ـ فأما **أدبه مع أستاذه**[1]: فلا بد أولاً من اختيار العالم المتقن للفن الذي يريد الطالب تعلمه، ولا بد أن يكون هذا الأستاذ ممن كملت أهليته، وتحققت معرفته، واشتهرت صيانته، ولا يكفى في أهليته التعليم أن يكون كثير العلم، بل ينبغى مع كثيرة علمه بذلك الفن كونه له معرفة في الجملة بغيره من الفنون، ويكون له دربة، وذهن صحيح، واطلاع تام[2].

ومن محاسن النظام التعليمي الإسلامي الذي استمر لقرون طويلة، أن الأستاذ لا يفرض على الطلاب فرضاً دون اختيار أو إرادة، وإنما يختار الطالب أستاذه وشيخه، وفي ذلك تحقيق هدفين مهمين: **الأول** أن الطالب لن يقبل ولن يختار إلا

---

(١) انظر في الكلام عن أدب طالب العلم مع أستاذه: النووي: المجموع ١/ ٣٦، وابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، ص١١٩ ـ ١٣٢، ود. بكر أبو زيد: حلية طالب العلم، ص٢٥ ـ ٣٢.

(٢) انظر: النووي: المجموع ١/٣٦، وابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، ص١٢٠، ود. بكر أبو زيد: حلية طالب العلم، ص٢٢ ـ ٢٤.

على من يستفيد منه، ومن ثم يتوافر العنصر الأساسي في حسن التعلم وجودة التحصيل، **والثاني** أن في ذلك محكاً مهماً للمعلمين؛ لأن من سيقبل عليه الطلاب ـ عادة ـ سيثبت أحقيته بالتعليم، وجدارته بالتدريس[(١)].

ولا يكفى في المعلم أن يكون على علم فحسب، بل لا بد أن ينضم إلى ذلك الدين، والخلق، والخشية من الله، والعمل بما يعلم، وقد أثر عن ابن سيرين وغيره من السلف أنهم قالوا: إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم[(٢)].

ويجب على طالب العلم أن يراعي سلوك الأدب مع أستاذه، وأول ذلك أن يوقره ويكرمه ويتواضع له، وقد قال النبي ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرْ كَبِيرَنَا وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا**»[(٣)]، وقال ﷺ: «**إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهِ إِكْرَامَ حَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ، وَلَا الْجَافِي عَنْهُ**»[(٤)].

وقد حكي أن زيد بن ثابت ذهب ليركب ووضع رجليه في الركاب، فأمسك ابن عباس بالركاب، فقال: تنح يا ابن عم رسول الله، قال: «لا هكذا يفعل بالعلماء والكبراء»[(٥)]، كذلك

---

(١) انظر: د. سعيد إسماعيل علي: السُّنَّة رؤية تربوية، ص٤٦٦.
(٢) وقد روى هذا الأثر عن ابن سيرين مسلم في مقدمة صحيحه، والدارمي (٤٢٤).
(٣) رواه أحمد (٧٠٥٦)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح
(٤) رواه أبو داود (٤٨٤٣)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود.
(٥) انظر: الخطيب البغدادي: الفقيه والمتفقه رقم (٨٤٩).

كان ابن عباس يبلغه الْحَدِيثُ عَنِ الرَّجُلِ من الصحابة، يقول: «آتِيهِ وَهُوَ قَائِلٌ، فَأَتَوَسَّدُ رِدَائِي عَلَى بَابِهِ، فَتَسْفِي الرِّيحُ عَلَى وَجْهِي التُّرَابَ فَيَخْرُجُ فَيَرَانِي، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ مَا جَاءَ بِكَ؟ أَلَا أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فَآتِيَكَ؟ فَأَقُولُ: لَا أَنَا أَحَقُّ أَنْ آتِيَكَ»[(١)].

وقال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: كنت أصفح الورقة بين يدي مالك رَحِمَهُ اللهُ صفحاً رفيقاً، هيبة له لئلا يسمع وقعها، وقال الربيع: والله ما اجترأت أن أشرب الماء، والشافعي ينظر إلي، هيبة له[(٢)].

ب ـ وأما أدبه مع الكتب فعلى طالب العلم أن يعلم أن الكتب من أعظم أدواته ووسائله في تلقي العلم، والاطلاع على دقائقه وتفصيلاته، ومن ثم فعليه أن يكون شغوفاً بها، حريصاً على جمعها، مؤثراً ذلك على المال، وسائر الملذات.

وقد نقل عن أهل العلم في القديم والحديث، الكثير من الأقوال المنظومة والمنثورة والقصص[(٣)]، التي تبين مدى

---

(١) رواه الدارمي (٥٩٠)، والحاكم (٣٦٣)، وقال الذهبي في تلخيص المستدرك: على شرط البخاري.

(٢) انظر: النووي: المجموع ١/٣٦، وابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، ص١٢١.

(٣) انظر الكثير من هذه الأقوال عند: ابن عبد البر: جامع بيان العلم ٢/٢٠٤، وابن القيم: روضة المحبين، ص٦٩، ٧٠، ود. بكر أبو زيد: حلية طالب العلم، ص٥٤ وعبد العزبز السدحان: معالم في طريق طلب =

شغفهم بالكتب، وحرصهم على تحصيلها، حتى إنه نقل عن بعضهم قوله: «لقد غبرت لي أربعون عاماً، ما قمت ولا نمت، إلا والكتاب على صدري».

ولما سئل العقاد عن مدى حبه للكتب أجاب: «إني أحب الكتب؛ لأن حياة واحدة لا تكفيني، ومهما يأكل الإنسان فإنه لن يأكل بأكثر من معدة واحدة، ومهما يلبس فإنه لن يلبس على غير جسد واحد، ومهما ينتقل في البلاد فإنه لن يستطيع أن يحل في مكانين، ولكنه بزاد الفكر والشعور والخيال ـ يقصد القراءة والكتاب ـ يستطيع أن يجمع الحيوات في عمر واحد»[(١)].

ومن الأدب مع الكتب أن يحسن التعامل معها، بأن يعتني بتحصيل الكتب المحتاج إليها ما أمكنه ذلك، وأن يحافظ عليها، فلا يعرضها للتلف أو التمزق، وأن يتصفحها بحرص، وأن يرتبها بطريقة تيسر له الحصول على ما يريد، وينبغي ألا يدخل في مكتبته كتاباً إلا إذا تصفحه سريعاً، وقرأ مقدمته وفهرسه، ليلم بمجمل ما تضمنه من موضوعات[(٢)].

= العلم، ص١٨٠، ١٨١، ود. هاشم فرحات ومحمود سيد: قالوا في الكتب، ص٢٤٣ ـ ٣٢٠.

(١) د. هاشم فرحات ومحمود سيد: قالوا في الكتب، ص٢٦٤.

(٢) انظر: ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، ص١٤٧ ـ ١٥٥، ود. بكر أو زيد: حلية طالب العلم، ص٥٦، وعبد العزبز السدحان: معالم في طريق طلب العلم، ص١٧٧ ـ ١٧٩.

أما إعارة الكتب لمن يطلبها، فثمة اتجاهان عند المتقدمين(١)، فمنهم من حذر من ذلك، لما مر به من تجارب مريرة مع المستعيرين الجاحدين ممن يأخذون الكتب ولا يردونها، وقد قال بعضهم: «لا تأمنن قارئاً على دفتر ولا حمالاً على حبل»، وهناك من حث على إعارة الكتب، وعد ذلك من الجود والكرم، ومن حق العلم على صاحبه، ومن مقتضيات شكر نعمة الله عليه في أن يسر له تحصيل هذه الكتب، ومن الأقوال المأثورة في هذا المعنى(٢) ما حكي عن بعضهم أنه قال: «أول بركة العلم إعارة الكتب»، وقال الزهري ليونس بن يزيد: «إياك وغلول الكتب، قال: وما غلول الكتب؟ قال حبسها عن أهلها».

ج ـ وأما الأدب مع رفاق الطلب(٣)، فأول ذلك أن يتخير لصحبته ذوي الدين والخلق والهمة العالية، ممن يذكرونه إذا نسي، ويعينونه إذا عجز ويحثونه إذا تكاسل، ويكونون نعم العون له في تذاكر مسائل العلم وقضاياه.

ومن أهم ما يجب مراعاته مع رفاق الطلب، الجود

(١) انظر: ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، ص١٤٧، ١٤٨، وعبد العزيز السدحان: معالم في طريق طلب العلم، ص١٨٣ ـ ١٨٩، ود. هاشم فرحات ومحمود سيد: قالوا في الكتب، ص٢٣ ـ ٤٧.

(٢) انظر: ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، ص١٤٨، ود. هاشم فرحات ومحمود سيد: قالوا في الكتب، ص٢٥ ـ ٢٨.

(٣) انظر: ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، ص١٣٩، ١٤٠، ود. بكر أبو زيد: حلية طالب العلم، ص٣٣، ٣٤.

والسخاء في نشر العلم والكتب، والبعد عما يفعله بعض من لا خلاق لهم من البخل بالعلم وحجب الفوائد عن الأقران، بغية الاستئثار بها، والتفوق على الآخرين مع أن زكاة العلم إنفاقه، والجزاء من جنس العمل، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، ومن بذل العلم للآخرين عوضه الله بأفضل مما أعطى وفتح له من أبواب المعرفة ما لم يكن يخطر له على بال.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة**»(١) وقال ﷺ: «**مثل الذي يتعلم العلم ثم لا يحدث به، كمثل الذي يكنز الكنز ثم لا ينفق منه**»(٢).

٤ ـ الآفات التي يجب أن يتجنبها العالم، والمتعلم:

وإذا كنا قد تكلمنا فيما مضى عن الآداب والخلال، التي يجب على كل من العالم والمتعلم أن يتحلى بها، فإن ثمة مجموعة من الآفات والرذائل التي تعكر صفو العلم، وتشوه مرآه الحسن، ويتعين على أهل العلم أن يتجنبوها.

وقد تعددت شكايات أهل العلم ـ قديماً وحديثاً ـ من

(١) رواه أبو داود (٣٦٥٨)، وأحمد (٨٣٢٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٤)، وشعيب الأرنؤوط في التعليق على المسند.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٤٧٩)، وصحيح الجامع (٥٨٣٥).

تلك الآفات وأصحابها، وممن انتسبوا للعلم ظاهراً، لكنهم لم يتحققوا به حقيقة ولا باطناً، وإنما اكتفوا برسوم ومظاهر وشكليات، فلم يترك العلم أثراً عليهم بل كانوا بمثابة نقاط سوداء شوهت ثوب العلم الناصع.

وفي كتابات[(١)] الخطابي في «العزلة»، والخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع»، والغزالي في «الإحياء»، وابن الجوزي في «تلبيس إبليس»، وابن حزم في «الأخلاق والسير»، والذهبي في «سير الأعلام» و«زغل العلم» ـ على خلاف في صحة نسبتها إليه ـ والسبكي في «معيد النعم ومبيد النقم»، وغيرهم انتقادات عدة تناولت الأخطاء الموجودة لدى الطلبة المنتسبين للعلوم المختلفة مثل: الحديث والفقه والقراءات واللغة وغيرها.

ومن نماذج ذلك: انتقاد الخطيب البغدادي لبعض المنتسبين لعلم الحديث، حيث نبَّه أولاً إلى أن «لكل علم طريقة، ينبغي لأهله أن يسلكوها، وآلات يجب عليهم أن يأخذوا بها ويستعملوها»، ثم أشار إلى الواقع الذي عايشه فقال: «وقد رأيت خلقاً من أهل هذا الزمان ينتسبون إلى الحديث، ويعدون أنفسهم من أهله المتخصصين بسماعه ونقله، وهم أبعد الناس مما يدعون، وأقلهم معرفة بما إليه ينتسبون،

(١) انظر: د. سلمان العودة: مع العلم، ص٦٣، ٦٤

يرى الواحد منهم إذا كتب عدداً قليلاً من الأجزاء، واشتغل بالسماع برهة يسيرة من الدهر، أنه صاحب حديث على الإطلاق، ولما يجهد نفسه ويتعبها في طلابه، ولا لحقته مشقة الحفظ لصنوفه وأبوابه»[١].

والعجيب أن هؤلاء النفر مع قلة كتابتهم للعلم «وعدم معرفتهم به، أعظم الناس كبراً، وأشد الخلق تيهاً وعجباً، لا يراعون لشيخ حرمة، ولا يوجبون لطالب ذمة، يخرقون بالراوين، ويعنفون على المتعلمين، خلاف ما يقتضيه العلم الذي سمعوه، وضد الواجب مما يلزمهم أن يفعلوه»[٢].

ويشير نجم الدين ابن قدامة إلى أن رتبة المسمين بالفقهاء والعلماء قد انحطت عن مقامات أهل العلم والأئمة الكبار وذلك «لتشاغلهم بصورة العلم من غير أخذ على النفس أن تبلغ إلى حقائقه، وتعمل بخفاياه، وأنت تجد الفقيه يتكلم في الظِّهار، واللِّعان، والسبق، والرمى، ويفرع التفريعات التي تمضى الدهور فيها ولا يحتاج إلى مسألة منها، ولا يتكلم في الإخلاص، ولا يحذر من الرياء، وهذا عليه فرض عين؛ لأن في إهماله هلاكه، والأول فرض كفاية، ولو أنه سئل عن علة ترك المناقشة للنفس في الإخلاص والرياء لم يكن له جواب، ولو سئل عن علة تشاغله بمسائل اللعان والرمى، لقال: هذا

(١) الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي والسامع ١/ ٧٥.
(٢) المصدر السابق ١/ ٧٧.

فرض كفاية، ولقد صدق، ولكن خفي عليه أن الحساب فرض كفاية أيضاً، فهلا تشاغل به، وإنما تبهرج عليه النفس؛ لأن مقصودها من الرياء والسمعة يحصل بالمناظرة، لا بالحساب»[(١)].

وللذهبي تتبع لمقاصد طلاب العلم ونياتهم في تحصيله، مقارنة بسلف الأمة الأوائل، ممن كانوا «يطلبون العلم لله، فنبلوا، وصاروا أئمة يقتدى بهم، وطلبه قوم منهم أولاً لا لله، وحصلوه، ثم استفاقوا، وحاسبوا أنفسهم، فجرهم العلم إلى الإخلاص في أثناء الطريق، كما قال مجاهد، وغيره: طلبنا هذا العلم، وما لنا فيه كبير نية، ثم رزق الله النية بعد، وبعضهم يقول: طلبنا هذا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله، فهذا أيضاً حسن، ثم نشروه بنية صالحة»[(٢)].

أما أصحاب النيات المدخولة فهم في رأيه أنواع شتى، فهناك قوم طلبوا العلم «بنية فاسدة لأجل الدنيا، وليثنى عليهم، فلهم ما نووا. قال ﷺ: «**من غزا ينوي عقالاً، فله ما نوى**» وترى هذا الضرب لم يستضيؤوا بنور العلم، ولا لهم وقع في النفوس، ولا لعلمهم كبير نتيجة من العمل، وإنما العالم من يخشى الله تعالى»[(٣)].

---

(١) نجم الدين ابن قدامة المقدسي: مختصر منهاج القاصدين، ص١٨.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٧/ ١٥٢.
(٣) المصدر السابق ٧/ ١٥٢، ١٥٣.

وهناك صنف آخرون «نالوا العلم، وولوا به المناصب، فظلموا، وتركوا التقيد بالعلم، وركبوا الكبائر والفواحش، فتباً لهم، فما هؤلاء بعلماء! وبعضهم لم يتق الله في علمه، بل ركب الحيل، وأفتى بالرخص، وروى الشاذ من الأخبار، وبعضهم اجترأ على الله، ووضع الأحاديث، فهتكه الله، وذهب علمه، وصار زاده إلى النار»(١).

وأخيراً فقد اتسع الخرق على الراقع وتلا تلك الأصناف السابقة «قوم انتموا إلى العلم في الظاهر، ولم يتقنوا منه سوى نزر يسير، أوهموا به أنهم علماء فضلاء، ولم يدر في أذهانهم قط أنهم يتقربون به إلى الله؛ لأنهم ما رأوا شيخاً يقتدى به في العلم، فصاروا همجاً رعاعاً، غاية المدرس منهم أن يحصل كتباً مثمنة، يخزنها، وينظر فيها يوماً ما، فيصحف ما يورده، ولا يقرره، فنسأل الله النجاة والعفو، كما قال بعضهم: ما أنا عالم، ولا رأيت عالماً»(٢).

وثمة آفات عديدة يجب على طالب العلم الحذر منها، والمجانبة التامة لها في مسلكه ظاهراً وباطناً، ونكتفي هنا بالإشارة إلى نماذج منها(٣):

---

(١) المصدر السابق ٧/ ١٥٣.

(٢) المصدر السابق ٧/ ١٥٣.

(٣) وانظر عرضاً مفصلاً لهذه الآفات عند ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم، ص٧٥ ـ ٨٥، ود. بكر أبو زيد: حلية طالب العلم، ص٥٧ ـ ٦٦، والتعالم وأثره على الفكر والكتاب.

أ ـ عدم الإخلاص، أو تعلم العلم لغير وجه الله تعالى:

وهذه الآفة هي أخطر الآفات التي تصيب طالب العالم، فتفسد عليه سعيه وقصده، ويتفرع عنها شتى العيوب والنقائص الأخرى؛ لأن العلم في أصله عبادة وطاعة، والشرط الأول لقبول أي عبادة هو الإخلاص فيها، وقصد وجه الله وحده سبحانه، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ۝١١٠﴾ [الكهف: ١١٠].

وقد تعددت النصوص من الكتاب والسُّنَّة في ذم من أراد بعمله مدح الناس وثناءهم، ولم يقصد به وجه الله سبحانه، وجاء التحذير ـ على وجه الخصوص ـ ممن يطلب العلم للدنيا، وليس لله، وابتغاء مرضاته سبحانه.

ومن الآيات الواردة في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨﴾ [الإسراء: ١٨]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠﴾ [الشورى: ٢٠].

وأما أحاديث السُّنَّة فهي كثيرة ومتعددة ومنها قوله ﷺ في التحذير من الرياء عموماً: «**قال الله تبارك وتعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه**»(١)، وقال ﷺ: «**إن أخوف ما أخاف عليكم**

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

الشرك الأصغر، قالوا: يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: **الرياء، إن الله تبارك وتعالى يقول يوم تجازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون بأعمالكم في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء**»[١].

وإضافة للتحذير من الرياء في سائر الأعمال، فقد ورد التحذير الشديد من طلب العلم لغير الله، كما في قوله ﷺ: «**من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله ﷻ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة**»؛ يعني: ريحها[٢].

ب ـ فقد الخشية وعدم العمل بالعلم:

وهذه الآفة تابعة لما قبلها ومتفرعة عنها؛ لأن العلم إذا طلب لغير الله لم ينفع صاحبه، ولم يؤثر فيه، ولم يحقق له المعرفة الحقيقية بالله، والخشية منه، وهي مقصد أساسي من مقاصد العلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ

---

(١) رواه أحمد (٢٧٧٤٢)، وصححه شعيب الأرنؤوط في التعليق على المسند.

(٢) رواه أبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٥٩).

رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩].

وقد تعددت الآيات والأحاديث التي تذم من لم يعمل بعلمه ولم يستفد منه شيئاً، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٢،٣]

وكان النبي ﷺ يستعيذ بالله من علم لا ينفع، فيقول: «**اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها**»(١)، كما كان يخاف على الأمة من كل منافق عليم اللسان(٢).

كذلك أخبر ﷺ أن كل أحد سوف يسئل عما علم فقال: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة، حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه**»(٣).

ومن الوعيد الشديد الذي ورد في حق من يعظ الناس،

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).
(٢) رواه أحمد (١٤٤، ٣١٢)، وقوى إسناده شعيب الأرنؤوط في التعليق على المسند.
(٣) رواه الترمذي (٢٤١٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٣٠٠).

ويحضهم على الخير، ثم ينسى نفسه، ويخالف فعله قوله، ما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «**يُجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون أي فلان ما شأنك، أليس كنت تأمرنا بالمعروف، وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**»[١].

وقال ﷺ أيضاً: «**مررت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، قال: قلت: من هؤلاء؟ قالوا: خطباء من أهل الدنيا كانوا يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون**»[٢].

وهذه النصوص المتقدمة تبين لنا بوضوح أن العبرة ليست بكثرة الكلام وتزويقه، ولا بكثرة المحفوظ، وإنما العبرة بالعلم النافع وهو «ما باشر القلوب، فأوجب لها السكينة، والخشية، والإخبات لله، والتواضع والانكسار له، وإذا لم يباشر القلب ذلك العلم، وإنما كان على اللسان فهو حجة الله على ابن آدم»[٣].

---

(١) رواه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٢) رواه أحمد (١١٨٠١)، وصححه شعيب الأرنؤوط في التعليق على المسند.

(٣) ابن رجب: الذل والانكسار للعزيز الجبار، ضمن رسائل ابن رجب ١/ ٢٩٦، تحقيق: طلعت بن فؤاد الحلواني، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.

ومن الملاحظ في عصرنا هذا وجود هوة سحيقة بين العلم والعمل، يراها كل ذي عينين، وتزداد خطورة هذه الهوة حينما تنتشر لدى القائمين بالتربية!! وهم محط القدوة والتأثير، ولعله مما يكفي النفس توبيخاً، والقلب تقريعاً، قول الله تعالى في هذا الصنف من الناس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٢، ٣]

ج ـ التعالم:

وهو ادعاء العلم والمعرفة، وتشبع المرء بما لم يعط، وخوضه فيما لا معرفة له به من مسائل العلم وقضاياه، وهو من أعظم الأبواب للقول على الله بغير علم، والذي يعد من كبائر الذنوب مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٣٣﴾ [الأعراف: ٣٣] كما نهى الله سبحانه أن يخوض الإنسان فيما لا علم له به فقال: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولًا ۝٣٦﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقد كثرت شكاية أهل العلم في القديم والحديث من تدخل هؤلاء المتعالمين والدخلاء فيما لا معرفة لهم به، فقال الشافعي في الرسالة: «فالواجبُ على العالمين أن لا يقولوا إلا من حيث علموا، وقد تكلم في العلم مَن لو أمسك عن بعض

ما تكلم فيه منه، لكان الإمساكُ أولى به وأقربَ من السلامة له إن شاء الله»[١]، وقال الغزالي: «لو سكت من لا يعلم لقل الخلاف»[٢].

وهناك الكثير من مظاهر التعالم[٣]، ومن أبرزها: التعالم في الفتيا بالاجتراء عليها، والتصدي لها قبل استكمال شرائطها والتأهل لها، والخوض في مسائل ونوازل عظام، لو عرضت على عمر رضي الله عنه لجمع لها الأشياخ من أهل بدر، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**من أُفتيَ فتيا غير ثبت، فإنما إثمه على من أفتاه**»[٤].

وبينما كان السلف رضي الله عنهم من أبعد الناس عن التصدر للفتيا وأكثرهم خوفاً منها، فإن المتعالمين من أكثر الناس جرأة عليه، مع أن أهل العلم ذكروا أنه «قلَّ من حرص على الفتوى، وسابق إليها وثابر عليها إلا قل توفيقه، واضطرب في أمره، وإن كان كارهاً لذلك غير مختار له ما وجد مندوحه عنه، وقدر أن يحيل بالأمر فيه إلى غيره، كانت المعونه له من الله أكثر، والصلاح في جوابه وفتاويه أغلب»[٥].

---

(١) انظر: الشافعي: الرسالة، ص٣٤.

(٢) وانظر عرضاً مفصلاً لهذه الظاهرة في: كتاب د. بكر أبو زيد: التعالم وأثره على الفكر والكتاب، مكتبة التربية الإسلامية، الطبعة الثالثة، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

(٣) انظر: د. بكر أبو زيد: التعالم، ص٣١ ـ ٧٢.

(٤) رواه ابن ماجه (٥٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٦٩).

(٥) ابن القيم: بدائع الفوائد ٣/ ٧٩٤.

ومن ظواهر التعالم أيضاً، الإقدام على الكتابة العلمية تأليفاً وتحقيقاً، مع قلة البضاعة، وضعف الملكة، وانعدام التحقيق، فيبادر الواحد من هؤلاء المتعالمين إلى تسويد الصفحات، وتأليف عشرات الرسائل والكتب فيما لا يفيد، أو فيما ألف فيه مراراً وتكراراً، وهو مع ذلك منتحل لما يكتب وسارق لكلامه من الآخرين، ومتسبب في إفساد الحركة العلمية وتعطيل مسيرتها(١) وقد حفلت كتب التاريخ والأدب بعدد من قصص هؤلاء المتعالمين(٢).



(١) انظر: د. بكر أبو زيد: التعالم، ص٦٣.
(٢) المصدر السابق، ص١٥ ـ ٢٠.

قائمة المصادر والمراجع

د. إبراهيم أحمد عمر:

- العلم والإيمان، مدخل إلى نظرية المعرفة في الإسلام، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٥م.

أبو الحسن الندوي:

- دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته، المجمع الإسلامي العلمي، الهند، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

أبو خيثمة زهير بن حرب:

- كتاب العلم، تحقيق الشيخ الألباني، مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

د. أحمد درة:

- قصة العلم في القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.

د. أحمد سليم سعدان:

- مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٣١، نوفمبر، ١٩٨٨ م.

د. أحمد عبد الحميد غراب:

- الإسلام والعلم، دار الطباعة والنشر الإسلامية، ١٩٨٦م.

د. أحمد بن عبد الفتاح ضليمي:

- السؤال في القرآن الكريم، وأثره في التربية والتعليم، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ١١١.

د. أحمد فؤاد باشا:
- في فقه العلم والحضارة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٩٧م.

أحمد الملا:
- أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية، دار الفكر دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

د. أسد رستم:
- مصطلح التاريخ، المكتبة العصرية بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

إسماعيل سعيد رضوان، عليان عبد الله الحولي:
- العقل في السُّنَّة النبوية، دراسة تحليلية تربوية، مجلة الجامعة الإسلامية بغزة، المجلد الثالث عشر، العدد الثاني، يونيو، ٢٠٠٥م.

د. أكرم ضياء العمري:
- منهج النقد عند المحدثين مقارناً بالمنهج النقدي الغربي، دار إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

الألباني:
- صحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

آمال قرداش بنت الحسين:
- دور المرأة في خدمة الحديث في القرون الثلاثة الأولى، سلسلة كتاب الأمة، العدد السبعون.

أماني بنت محمد قليوبي:
- التربية العقلية في السُّنَّة النبوية وتطبيقاتها التربوية في المرحلة الابتدائية، رسالة ماجستير بكلية التربية، جامعة أم القرى، ١٤٢٦هـ.

إميل بوترو:

- العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، ترجمة: د. أحمد فؤاد الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م.

أ. وولف:

- فلسفة المحدثين والمعاصرين، ترجمة: د. أبو العلا عفيفي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية.

أنور الجندي:

- موسوعة مقدمات العلوم والمناهج، دار الأنصار، ١٩٨٦م.
- العلم في الإسلام، سلسلة دراسات إسلامية معاصرة، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

د. بكر أبو زيد:

- التعالم وأثره على الفكر والكتاب، مكتبة التربية الإسلامية، الطبعة الثالثة، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.
- حلية طالب العلم، مكتبة التوعية الإسلامية، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.
- معجم المناهي اللفظية، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

البلاذري:

- فتوح البلدان، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، وعمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

د. توفيق الطويل:

- أسس الفلسفة، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٥٥م.

ابن تيمية:

- درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: د.محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

- النبوات، المطبعة السلفية بالقاهرة، ١٣٨٦هـ.

الجرجاني:

- التعريفات، تحقيق: د. عبد المنعم الحفني، دار الرشاد، القاهرة، ١٩٩١م.

د. جعفر شيخ إدريس:

- مناهج التفكير الموصلة للحقائق الشرعية والكونية، مركز البيان للبحوث والدراسات، ١٤٣٧هـ.

- علاقة العلم بالدين، مجلة البيان، العدد ٢٣٨، جمادى الثانية ١٤٢٨هـ - يونيو ٢٠٠٧م.

د. جلال محمد موسى:

- منهج البحث في العلوم عند العرب في مجال العلوم الطبيعية والكونية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م.

جمال بن محمد السيد:

- ابن قيم الجوزية وجهوده في خدمة السُّنَّة النبوية وعلومها، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

د. جنيد أشرف إقبال

- العدالة والضبط وأثرهما في قبول الأحاديث أو ردها، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

جوزيف شاخت، وبوزورث:

- تراث الإسلام، الجزء الأول، ترجمة: د. محمد السمهوري، وآخرين، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٨، ١٩٨٥م.

حاجي خليفة:

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

ابن حجر:

- فتح الباري، شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، **١٣٧٩**هـ.
- الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى، **١٤١٢**هـ ـ **١٩٩٢**م.

د. حسان حلاق، ود.حربي عباس:

- العلوم عند العرب، أصولها وملامحها الحضارية، دار النهضة العربية بيروت، **١٩٩٥**م.

د. حلمي عبد المنعم صابر:

- منهجية البحث العلمي وضوابطه في الإسلام، سلسلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، العدد **١٨٣**، **١٤١٨**هـ.

د. خالد أبا الخيل:

- الاتجاه العقلي وعلوم الحديث، جدلية المنهج والتأسيس، الجمعية العلمية السعودية للدراسات الفكرية المعاصرة، الرياض، الطبعة الأولى، **١٤٣٥**هـ.

د. خلدون الأحدب:

أثر علم أصول الحديث في تشكيل العقل المسلم، الطبعة الأولى، **١٤٢٧**هـ ـ **٢٠٠٦**م.

د. خليل الحدري:

- منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، **١٤٢٥**هـ ـ **٢٠٠٥**م.

الذهبي:

- سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، **١٤٠٢**هـ ـ **١٩٨٢**م.
- ميزان الاعتدال، دار الكتب العلمية، بيروت، **١٩٩٥**م.

د. راجح الكردي:
- نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ومكتبة المؤيد، الطبعة الأولى، **١٩٩٢**م.

ابن رجب:
- بيان فضل علم السلف على علم الخلف، تحقيق: محمد بن ناصر العجمي، الطبعة الأولى، **١٤٠٣**هـ.
- الذل والانكسار للعزيز الجبار، ضمن رسائل ابن رجب، تحقيق: طلعت ابن فؤاد الحلواني، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، **٢٠٠٣**م.

د. زغلول النجار:
- قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر، كتاب الأمة العدد **٢٠**، أكتوبر **١٩٨٨**م.

زكريا الأنصاري:
- الحدود الأنيقة، تحقيق: د. مازن المبارك، دار الفكر المعاصر، لبنان، **١٩٩١**م.

زيغريد هونكه:
- شمس العرب تسطع على الغرب، أثر الحضارة العربية في أوروبا ترجمة كمال بيضون، وفاروق دسوقي، دار الجيل بيروت، الطبعة الثامنة، **١٩٩٣**م.

د. سعيد إسماعيل علي:
- السُّنَّة رؤية تربوية، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، **١٤٢٣**هـ ـ **٢٠٠٢**م.

السمعاني:
- أدب الإملاء والاستملاء، تحقيق: أحمد محمد عبد الرحمٰن، الطبعة الأولى، **١٤١٤**هـ ـ **١٩٩٣**م.

د. سيد حسين العفاني:

- صلاح الأمة في علو الهمة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

د. السيد رزق الحجر:

- المنطق القديم والمنطق الحديث بين المسلمين، ومفكري الغرب، دار الثقافة العربية، ٢٠٠٠م.

الشوكاني:

- إرشاد الفحول، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

د. صالح يوسف معتوق:

- جهود المرأة في رواية الحديث في القرن الثامن الهجري، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

صديق حسن خان:

- أبجد العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م.

د. صلاح الدين المنجد:

- الإسلام والعقل على ضوء القرآن والحديث، دار الكتاب الحديث، بيروت، الطبعة الثانية.

د. صلاح رسلان:

- العلم في منظوره الإسلامي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٨٩م.

د. عاصم القريوتي:

- وجوب التثبت في الرواية، مكتبة ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

عباس محمود العقاد:

- التفكير فريضة إسلامية، دار القلم، الطبعة الأولى.
- الفلسفة القرآنية، ضمن موسوعة عباس محمود الإسلامية، دار الكتاب العربي، لبنان، ١٩٧١م.

- أثر العرب في الحضارة الأوربية، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٨م.

عبد الله الربيعي:

- أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي خلال الحروب الصليبية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

د. عبد الله عبد الرزاق مسعود:

- الطب ورائداته المسلمات، مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.

د. عبد الله القرني

- المعرفة في الإسلام: مصادرها ومجالاتها، مركز التأصيل، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

ابن عبد البر:

- جامع بيان العلم وفضله، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ.

د. عبد الحليم محمود:

- موقف الإسلام من الفن والعلم والفلسفة، مطابع دار الشعب بالقاهرة، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

د. عبد الحميد الصيد الزنتاني:

- أسس التربية الإسلامية في السُّنَّة النبوية، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م.

د. عبد الحميد مدكور:

- في الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر، دار الهاني للطباعة والنشر، ٢٠٠٣ م.
- دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي، دار الهاني، ١٩٩٣م.

عبد الرحمٰن بدوي:

- مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٧م.

د. عبد الرحمٰن بن زيد الزنيدي:

- مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، دراسة نقدية في ضوء الإسلام، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ومكتبة المؤيد، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.
- قضايا المعرفة في الفكر المعاصر والموقف السلفي، مركز الدراسات والإعلام، دار إشبيليا، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

د. عبد الرحمٰن بن صالح المحمود:

- موقف ابن تيمية من الأشاعرة، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

عبد الرحمٰن النحلاوي:

- من أساليب التربية الإسلامية التربية بالحوار، دار الفكر المعاصر، بيروت، ٢٠٠٠م.

عبد الرحمٰن بن يحيى المعلمي اليماني:

- الأنوار الكاشفة لما في كتاب «أضواء على السُّنَّة» من الزلل والتضليل والمجازفة، المطبعة السلفية ومكتبتها، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦ م.

عبد الفتاح أبو غدة:

- قيمة الزمن عند العلماء، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، الطبعة الخامسة عشر، بيروت، لبنان، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.
- الرسول المعلم، وأساليبه في التعليم، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب.
- صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، الطبعة التاسعة في بيروت، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

د. عبد الكريم بكار:

- بناء الأجيال، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

د. عبد الكريم زيدان:

- السنن الإلٰهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

عبد الكريم عبيدان:

- الدلالة العقلية في القرآن الكريم ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية، دار النفائس، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

عبد المجيد المشعبي:

- التنجيم والمنجمون وحكمهم في الإسلام، مكتبة الصديق، الطائف، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

ابن العربي:

- عارضة الأحوذي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

د. علي سامي النشار:

- مناهج البحث عند مفكري الإسلام، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٩٤٧م.

د. علي عبد المعطي:

- المدخل إلى الفلسفة، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٣م.

د. عماد الدين خليل:

- العقل المسلم والرؤية الحضارية، دار الحرمين للطباعة والنشر، قطر، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
- حول إعادة تشكيل العقل المسلم، سلسلة كتاب الأمة، العدد ٤، رمضان، ١٤٠٣هـ.

د. عمر فلاتة:

- الوضع في الحديث، مكتبة الغزالي، دمشق، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

غوستاف لوبون:

- حضارة العرب، نقله إلى العربية: عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، وشركاه.

فاطمة إسماعيل:

- النظر العقلي في القرآن الكريم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى.

د. فؤاد زكريا:

- التفكير العلمي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد **٣**، مارس، **١٩٧٨**م.

قدري حافظ طوقان:

- علماء العرب وما أعطوه للحضارة، دار الكاتب العربي، بيروت، بدون تاريخ.

ابن القيم:

- مفتاح دار السعادة، دار الكتب العلمية، بيروت.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار الحديث، **١٩٨٧**م.

ابن كثير:

- البداية والنهاية دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، **١٤٠٨**هـ ـ **١٩٨٨**م.

ماجد عرسان:

- فلسفة التربية الإسلامية دراسة مقارنة بين فلسفة التربية الإسلامية والفلسفات التربوية المعاصرة، مكتبة المنارة، الطبعة الأولى، **١٤٠٧**هـ ـ **١٩٨٧**م.

الماوردي:

- أدب الدنيا والدين، شرح وتعليق: محمد كريم راجح، دار اقرأ، بيروت، الطبعة الرابعة، **١٤٠٥**هـ ـ **١٩٨٥**م.

د. محمد إسماعيل المقدم:

- عودة الحجاب، القسم الثاني، الطبعة الثامنة، **١٤١٤**هـ.

د. محمد بلتاجي:

- بحوث مختارة في السُّنَّة، مكتبة الشباب، **١٩٩٦**م.

محمد سعيد رسلان:

- فضل العلم، وآداب طلبته، وطرق تحصيله وجمعه، مؤسسة الزهراء للدعاية والنشر والتوزيع، **١٩٩٣**م.

د. محمد سليمان داود:

- نظرية القياس الأصولي منهج تجريبي إسلامي، دار الدعوة بالإسكندرية، **١٩٨٤**م.

د. محمد الصادق عفيفي:

- تطور الفكر العلمي عند المسلمين، مكتبة الخانجي، **١٩٧٧**م.
- لمحات في الثقافة الإسلامية، مكتبة الأنجلو المصرية، **١٩٩١**م.

محمد بن صالح العثيمين:

- كتاب العلم، إعداد: فهد بن ناصر السليمان، دار الثريا للنشر، الطبعة الأولى، **١٤٢٠**هـ ـ **١٩٩٩** م.

محمد بن عبد الرحمٰن الوصابي:

- نشر طيّ التعريف في فضل حملة العلم الشريف، دار المنهاج، جدة، الطبعة الأولى، **١٤١٧**هـ ـ **١٩٩٧**م.

محمد عبد العظيم الزرقاني:

- مناهل العرفان في علوم القرآن، تحقيق: فؤاد أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، **١٩٩٥**م.

د. محمد عبده:

- مقومات الشخصية العلمية، حولية كلية دار العلوم، العام الجامعي، **١٩٧٢ ـ ١٩٧٣**م.

د. محمد على الجوزو:

- مفهوم العقل والقلب في القرآن والسُّنَّة، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، **١٩٨٣**م.

محمد فريد وجدي:

- دائرة معارف القرن العشرين، دار الفكر، بيروت.

د. محمد مصطفى الأعظمي:

- منهج النقد عند المحدثين نشأته وتاريخه، مكتبة الكوثر، الطبعة الثالثة، **١٤١٠**هـ ـ **١٩٩٠**م.

محمود شلتوت:

- من توجيهات الإسلام، دار الشروق، الطبعة الثامنة، **٢٠٠٤**م.

د. محمود عبد الحكيم عثمان:

- جهود المفكرين المحدثين في مقاومة التيار الإلحادي، مكتبة المعارف الرياض، **١٤٠١**هـ ـ **١٩٨١**م.

د. مسعود ضاهر:

- النهضة العربية والنهضة اليابانية، تشابه المقدمات، واختلاف النتائج، سلسلة عالم المعرفة، العدد **٢٥٢**.

مصطفى صبري:

- موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين، وعباده المرسلين، المكتبة الإسلامية، **١٣٦٩**هـ ـ **١٩٥٠**م.

المناوي:

- التوقيف على مهمات التعاريف، دار الفكر، بيروت، **١٤١٠**هـ.

هدى عبد الرحيم قاسم:

- التربية العقلية في القرآن الكريم، ماجستير بكلية التربية جامعة أم القرى، **١٤٠٦**هـ.

د. همام سعيد:

- الفكر المنهجي عند المحدثين، سلسلة كتاب الأمة، العدد **١٦**، **١٤٠٨**هـ.

د. يحيى هاشم فرغل:

- الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة، دار المعارف، **١٩٨٤**م.

د. يحيى هويدي:

- مقدمة في الفلسفة العامة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة التاسعة، **١٩٨٩**م.

د. يمنى طريف الخولي:

- فلسفة العلم في القرن العشرين، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٦٤، ديسمبر **٢٠٠٠**م.

د. يوسف القرضاوي:

- الرسول والعلم، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية، **١٤٢٧**هـ ـ **٢٠٠٦**م.
- العقل والعلم في القرآن الكريم، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، **١٩٩٦**م.

يوسف كمال:

- منهج المعرفة من القرآن الكريم، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، **١٤٠٦**هـ ـ **١٩٨٦**م.